عنترة بن شدّاد

٦



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٦

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطّار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

أحضر عنترة الدرع المغصوبة ، وتفضل على عمارة بعتقه من أسره ، وذهب إلى بيت أمه زبيبة ، لينام ليلة هادئة ، ينضح بها عنه متاعب هذه الجهود الجبارة ؛ وفى جوف الليل استيقظ على صيحات تهز القلب وتثير العاطفة ، وتحفز الهمم : يا للعرب ! يا للنجدة ! أغثنى يا أبا الفوارس ، نهب الأعداء مالى ، وسبوا عيالى ، وجئتك مستجيراً :

هب عنترة من نومه يتوثب رجولة ونخوة ، فأيقظ شيبوباً أخاه ، وأمر أن يعد جواده الأبجر ، ويتهيأ للخروج معه نحو هذا الصوت المستجير به .

خرج عنترة وأخوه ، وإن أمه لتذوب إشفاقاً عليه وخوفاً ، إذ كان قلبها يحس ريبة فى هذا الصوت المستغيث ، فرفعت يديها إلى السماء داعية :

اللهم كما حفظت بيتك المحرم احفظ عنترة من كل مكر وخديعة ، وكما تعين على النوائب أعنه إذا ادلهم الأمر ، وعظم الخطب ، واقبله منى وديعة مستردة فى أحسن حال ، وأنعم بال .

ولما دنا من الصائح قال :

لبيك أيها العربى الكريم ، سر بنا إلى حيث تريد .

فجدوا فى السير بقية الليل حتى أشرفوا فى عتمة الصباح على أرض وعرة المسالك بادية المخاوف؛ فوقف عنترة وقال :

يا وجه العرب ، أخبرنى : من أخذ مالك ، وسبى عيالك ؟ أبشر برجوع المال والعيال وإن كان خصيمك كسرى أو قيصر .

فقال الرجل :

إنى رجل من بنى شيبان ، ولى صلة بالأمير بسطام ، وكنت سائراً ومعى بنت عمى وابنتى إلى بنى مرة لزيارة أختى هناك ، فلما وصلت إلى هذا المكان ، بغتنى عشرون فارساً أظنهم من أرضكم ، فنهبوا المال ، وسبوا البنتين وجرحونى ، وقد سمعت بذكرك فى كل مكان ، وعلى كل لسان ، فجئتك مستجيراً ، وهذه قصتى .

لم تكن هذه القصة إلا كذباً وافتراء ، فقد حاكها الربيع بتدبيره ، وأرسل هذا الرجل ليجىء بعنترة فى الليل إلى هذا المكان ، وكان قد أعد له فيه أربعين فارساً ، فكمنوا فيه حتى يأتيهم الرجل بعنترة ، وما كاد الرجل ينتهى من قصته حتى تشققت الصحراء عن طوائف من الفرسان ، فانقضوا عليه انقضاض العقبان ، وانصب هو عليهم انصباب السحاب الممطر ، وجعل يحصدهم بسيفه وسنانه حتى قتل منهم عشرة ، وكانت عدتهم تربى على الخمسين ، فهربوا فى المفاوز ، وأووا إلى مكمنهم ،

وهناك شكوا إلى الربيع قسوته، وعجزهم عن الوقوف فى وجهه ، فقال لهم : طائفة منكم ترميه بالحجارة ، وأخرى تسفى الرمال فى عينيه ، وثالثة تطلبه برماحها وسيوفها ؛ وليكن كل ذلك منكم فى آن واحد ، حتى يضطرب ويختل ميزان جهاده ، فإذا ما سقط عن جواده فتداكوا عليه وأحيطوا به ، وأوثقوه فى حبائل الأسر الأليم؛ وما لبثوا إلا بمقدار ما سمعوا، وما هى إلا لفتة حتى كانوا من حوله ينفذون ما أمروا به ، وقد وضعوا الحبال فى طريق جواد عنترة ، فكبا كبوة أسقطته على جنبه ، وجعلت عنترة من تحته ، فألقى الفرسان بأنفسهم عليه ، وتكدسوا فوق صدره وبطنه ، ويديه ورجليه . وكان الربيع قد وصاهم إن ظفروا به لا يقتلونه ، حتى يشفى غليل صدره بتعذيبه ، والسخرية منه ؛ وربطوه على حصانه الأبجر ربطاً جعله على الحصان كتلة لا تتحرك ؛ وهمّ شيبوب أن يلوذ بالفرار ليعلم بنى عبس بأمره فيدركوه ، ولكنهم أسرعوا إليه ، وجاءوا به مقيداً ، فقرنوه إلى أخيه وجاء الربيع فرحاً بأسره ، فلما رآه عنترة قال :

استنفرتنا من مضاجعنا لواجب إنسانى صدقنا نداءه فلبيناه ، وما دام هذا قدر الله فينا ، فسواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، ما لنا من محيص ، فليفعل بى فرسانك ما تأمر ، فالحكم لله العلى القادر ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

فقال عمارة :

اليوم خمر وغداً أمر ، فلنعبث بك اليوم عبث القط بفأره ، يداعبه ويلاعبه ، ثم هو لا ينجو من أنيابه ومخالبه .

وقطع حديثهم سماعهم صياحاً يدوى فى الجو ، فالتفتوا نحو مصدره، فوجدوا جيشاً جرّاراً يعدو إليهم فى سرعة البرق ، فقال الربيع :

يا عمارة ! عجل بقتل عنترة ، قبل أن يشغلنا عنه ما ألمّ بنا من هذه الفرسان المقبلة ، فهم عمارة بقتله وهو على جواده ، ولكن الجواد الأبجر انفلت بعنترة انفلات السهم نحو الخيل المقبلة ، فأفلت من يده — وكان عنترة قد عود جواده ألا يرى خيلا حتى يطلبها ويفزع إلى لقائها — فأنسى الخوف الربيع وعمارة كل شىء إلا أنفسهما ، فغاصا هما ومن بقى معهما فى غمار الصحراء تاركين شيبوباً موثقاً بالحبال .

عرف رئيس الجيش القادم عنترة ، وكان قد أشرف على مكان شيبوب فعرفه أيضاً ، وفرح بلقائهما فرحاً عظيماً ، وظن عنترة أن قد انتهت محنته ، ولكنه لا يدرى ما خبأه القدر له .

كان الفرسان القادمون من بنى خولان وزعيمهم مشاجع ، خرجوا يضربون فى الأرض ابتغاء المال والرزق ، ولما التقى بعنترة وأخيه التفت إلى صحبه قائلاً :

أبشروا بالمال الغزير ، فهذا عنترة بن شداد ، حامية بنى عبس ،

قتل ثلاثة أبناء لملكينا صفوان بن عباد، فإذا أتيناه به منحنا ما نشاء من الأموال ! ثم انقلبوا جميعاً إلى ديارهم ومعهم عنترة وشيبوب .

حبس مشاجع عنترة وشيبوباً فى مكان حصين وربطهما فى أوتاد من حديد ، إلى أن يخبر الملك صفوان ، ويحصل منه من الأموال على ما يريد ، وذهب هو وصفوة من رجاله إلى الملك فى مقر حكمه ، ليعلموه أمر عنترة وأخيه ، وشاع فى الحى نبأ أسر عنترة ، وكانت شجاعته ومروءته لا تزالان حديث المجالس والأندية ، فشغفت البنات والنساء برؤية هذا الفارس الذى ملأ فم الدنيا بالثناء عليه ، فوفدن إليه جماعات وكان من بين الوافدات عجوز بلغت من الكبر عتيًّا، فما رأته حتى انكبت على يديه تقبيلا ولثماً ، وقالت :

عزيز علينا أيها الفارس النبيل أن يمسك الزمان بضره .

فقالت نساء الحى :

من أين عرفت هذا العبد ؟ ! وماذا بدا لك من معروفه ؟ !

فقالت :

لا تقلن إنه عبد ، فما رأيت أشجع ولا أكرم منه فى العرب ، وإنى لا أنسى فضله ، ولا أزال أتفيأ ظلال نعمته .

فقالت زوجة مشاجع : وكيف كان ذلك ؟ !

فقالت العجوز :

لما أراد ابنى أن يتزوج ابنة عمه بسام ، خرج يطلب المال من أجلها ، فأغار ابنى على والد عنترة هذا وغنم من أمواله مائة ناقة وجمل ، فتتبعه عنترة حتى أدركه ، واسترد النوق والجمال ، وعاد بابنى أسيراً إلى الديار ، ولما استقر بهم المقام، بكى ابنى بكاء مرًّا ، فسأله عن بكائه ، فقص عليه قصته ، فقال له :

لا تخف ولا تحزن ! إنا معطوك ما غنمت ، ومثله معه ، لتهنأ بزواجك من ابنة عمك، ولا تخاطر بنفسك بعد الآن فى طلب الكسب، وكلما ألمت بك حاجة فأتنا ، ولك عندى ما تحتاج وتبغى ؛ ثم شيعه تشييعاً كريماً، ولا نزال حتى الساعة ، نرتع فى بحبوحة من ماله وفضله .

فأحبته النساء وحرصن على راحته وإكرامه ، والتنفيس عنه وعن أخيه بطرف من الأخبار والنوادر ، وهو صابر ينتظر قضاء الله فيه .

كان مبادر بن جارح الأسود يحب مارية بنت مشاجع لما سمعه عن جمالها وأدبها وفصيح بيانها ، فخطبها من أبيها فأبى ورده خائباً ، فغضب وتألم ، وبلغ أمه ذلك عسى أن تساعده باحتيالها وتدبيرها فقالت له :

يا بنى ، عليك أن تحتال حتى تراها فإن لم تعجبك فاتركها وابحث عن غيرها ، وإن أعجبتك فاجمع جنودك وقاتل أباها حتى تفوز بها ، فتنكر مبادر هذا فى زى فقير عربى ، ولبث فى ديار مارية ثلاثة أيام ،

واستطاع أن يراها ، فنالت إعجابه ، وملكت عليه فؤاده ، وأصبحت كل رجائه وأمله ، ولما جمع جموعه أرسل عبداً من عبيده إلى ديار مشاجع فى بنى خولان ليكشف له أخبارها ، حتى يسير إليها على بصيرة من أمره ، فعاد الرسول وأخبره أن الديار خالية من رجال بنى خولان ، لأن مشاجعاً أخذهم وسار إلى الملك صفوان يخبره بأن عنترة وأخاه شيبوباً أسيران عنده ، فانتهز فرصة غيبتهم وأغار على ديارهم فى خمسمائة فارس ، واقتحم المضارب والخيام ، وأنزل بأهلها الذل والهوان ، ووقع السبى فى الكواعب والأتراب من أجل مارية بنت مشاجع ؛ فجاءت العجوز إلى مارية وأمها وأهلها وقالت :

إن أحببتن كشف هذه الغمة فى لمح البصر ، فتوسلن إلى عنترة أن يصد الأعداء ، فهو كفيل بإبادتهم ولو كانوا عدد النجوم. فذهبن إليه باكيات، وقصصن عليه قصة مبادر ومارية ، وما جرته على الديار والأهل من هذا الخطب الجسيم ، وقلن له :

نحن الآن بين أمرين لا يقل أحدهما خطراً علينا عن الآخر: أما الأول فإنا نخشى أن نفك قيودك ، فتثور ثائرتك ، وتنتقم منا من أجل أسرك ، ثم تتركنا إلى ديارك ، وأما الآخر فهو أن نتركك مصفداً فى أغلالك ، وفى ذلك القضاء علينا من هذا العدو الفاجر ؛ ولكن لنا رجاء فيك، وأملاً عظيماً فيما طبعت عليه من إغاثة الملهوف ، وكشف

الكرب عن المكروب ، وقد جئنا إليك باكيات مستصرخات ، لتدفع عنا هذا البلاء .

فقال عنترة :

ليس لأحد فى أسرى عمل مشكور ، وما أسرت إلا بالقدر المقدور ، وعزيز علىّ أن أرى هذا الظلم الفادح ، ولا أستطيع دفعه على الرغم منى ، ولو لم تستنجدن بى لرجوتكن أن تطلقن سراحى حتى أبيد الأعداء ، وأنفس عنكن هذه الكربة ، على أن أعود إلى قيودى وأغلالى ، ولا أنطلق منها إلا عن اختيار ورضا ، لا يبطلهما مَنّ ولا أذى .

فتقدمت مارية وفكت قيوده وقيود أخيه شيبوب ، وامتطى جواده الأبجر ، وخاض هو وأخوه المعركة وهى على أشدها ، ففى الأعداء منه برجفة كأنها رجفة الزلزال ، وطغيان كأنه طغيان البركان ، وجعل يأكلهم بسيفه كما تأكل النار الهشيم ، ولما رأى مبادر أن فرسانه أصبحت بين مقتول وهارب ، أتى عنترة وأشار إليه أنه يريد أن يحدثه ، فقال :

قل ما تريد ، ولا تثقل علىّ القول بطوله ، وكثرة لغوه .

فقال مبادر : من أنت أيها الفارس الهمام ؟

قال : أنا عنترة حامية بنى عبس وعدنان ، وفزارة وذبيان ؛ وقد عولت على أن أقتلك أو تنجو بنفسك إلى ديارك وأهلك .

فقال مبادر : إن بنى عبس مجبولون على الوفاء ، وإنصاف الناس ولو من أنفسهم ، فكيف شذت فطرتك عن فطرتهم ، فغدرت بنا واعتديت علينا .

فقال عنترة : أبن عن مرادك ، حتى ننظر فى أمرك ، فما أرانى الآن إلا أنى أحققت الحق وأزهقت الباطل ، وأنصفت المظلوم من الظالم .

فقال مبادر : أضعت من يدى من أحبها ، وحلت بينى وبينها ، وقد كنت منها قاب قوسين أو أدنى .

فقال عنترة :

تكرهون الظلم ينصب عليكم ، وتحبونه ينزل بغيركم ؟ ! إن هذا لشىء عجيب ! لقد أبى والد مارية أن يزوجك منها ، فهل العدل فى رأيك أن تنتهز غيبته ، فتغير على حيه : تقتل رجاله ، وتسبى نساءه ، وتنتهك حرمته ؟ إن هذا لشىء عجيب ! وإذا ما نهضت أنا فثلمت سيف بغيك ، ورددت إلى الحى أمنه وسلامته رميتنى بالغدر والعدوان ؟ ! إن هذا لشىء عجيب ! ورب السماء والأرض إن لم ترحل برجالك من فورك لأقتلنكم أجمعين !

لم يطق مبادر صبراً على هذا الوعيد ، فحمل على عنترة يبغى قتله ؛ فأطمعه عنترة فيه حتى أنهك منه القوى ، ثم انقض عليه فألقاه على الأرض جثة هامدة تتشحط فى دمائها ، ثم مال على رجاله ميلة جعلتهم يلوذون بالفرار ، بعد أن قتل منهم عدداً كثيراً ؛ ثم عاد عنترة وشيبوب

معه ، وأمر عبيد الحلة أن يجمعوا الأسلاب والمغانم ، وتركها لبنات الحى ونسائه ، واستقبلته نساء الحى بمظاهر البشر والبهجة ، وأثنت عليه مارية ثناء مستطاباً ؛ وكان عنترة قد قطع رأس مبادر ، وغرس فيه سنان رمحه ، ثم ركزه أمام بيت مشاجع ، وقال لشيبوب : هيا بنا إلى قيودنا وأغلالنا .

فقال شيبوب :

ويحك يابن الأماجد ! ! أى شيء أصاب عقلك ؟ ! أبعد أن فكت عنك تلك القيود تسعى إليها ، وتحبس نفسك فيها ، منتظراً من يأتى ليقطع رقبتك ، أو يبيعك لمن يقطعها ؟ ! قم يا أخى ، واركب جوادك وانطلق بنا إلى الديار .

فقال عنترة لأخيه : محال أن أنقض ما عاهدت النساء عليه ، ولا بد من الرجوع إلى قيودى ، حتى يقضى ربى بما يشاء فى أمرى .

ثم طلب عنترة من النساء أن يحبسنه كما كان فى قيوده وأغلاله . فأبين ذلك ، وأقسمن ألا تمس يد واحدة منهن قيداً من قيوده ، فنظر إلى أخيه شيبوب وقال :

قم يا شيبوب وأعدنى كما كنت ، والله يخلق ما يشاء ويختار .

فسمع شيبوب كلامه وأطاعه ، وأعاده إلى قيوده وأغلاله ، وهو فى ألم يخامر نفسه من صنيع أخيه هذا .

حضر مشاجع من غيبته . فألفى جثث القتلى حول المضارب مطروحة ولكن النساء فى فرح وبهجة ، فسأل عن هذه الحال العجيبة ، فقصصن عليه ما كان من مبادر وإغارته ، وما كان من عنترة ومروءته ، وقتله مبادر بن إياس وهزيمته جيشه ، ثم إبائه بعد ذلك أن يبقى خارج قيوده حتى تعود ؛ ففرح مشاجع ورجاله ، وحل عنترة من نفوسهم محلا كريماً ، وقال مشاجع :

لقد طوّق أعناقنا ذلك الفارس بعظيم فضله ، وأبان بفعله عن كريم خلقه ، وسمو نفسه ، وعظيم رجولته ، ومثل هذا الفارس ينبغى أن نتخذه لنا وليًّا حميما ، فقالوا :

والله لقد أصبح هذا الفارس أحب إلينا من نفوسنا ، وأعز علينا من أبنائنا ، وأكرم على أنفسنا من آبائنا ؛ ثم دخلوا عليه فحيوه تحية كلها محبة واحترام ، وتقدم مشاجع إليه فقبل رأسه ، وحل قيوده ، وسار به إلى منتدى الحى وأخوه شيبوب معه ، فجلس بين الرجال وإن قلوبهم لتكاد تثب من صدورهم لتحييه ، وتقبل رأسه ويديه ، والنساء من حول المنتدى يشرفن على هذه الشخصية الفذة ، والرجولة النادرة .

وكان بين الرجال الجالسين مثير بن مراد ، وهو يبغض عنترة ويتمنى له أوخم العواقب لأن عنترة قتل أربعة أولاد له ، فقال لمشاجع :

لقد وعدك الملك صفوان بالمال الوفير إن أنت أرسلت إليه عنترة

أسيراً ، وأراك الآن قد تغيرت وجهتك فيه ، ونويت إخلاء سبيله ؛ فماذا أعددت من الحجة للملك إن هو طلبه منك ولم يجده ؟

فغضب مشاجع وقال له :

وأية حجة أوضح من وقايته نساءنا ، وحمايته أحياءنا ، وفتكه بأعدائنا فى غيبتنا ، وهو مكبل فى قيودنا ؟ ! لا تخاطبنى فى أمر عنترة بهذا القول الذى ينم عن حقد فى نفسك وجهل بمواقع المروءة والكرم .

وكان النساء قد سمعن هذا الحديث ، فانهلن عليه بأعمدة الأخبية ضرباً حتى كاد يهلك ، ثم التفتن إلى رجالهن وقلن :

إن لم تقوموا بواجبكم الإنسانى نحو هذا الفارس العظيم لبسنا عدة الحرب وصحبناه إلى دياره ، حتى يلتقى بأهله فى عزة منا ، وتقدير لصنيعه فينا .

فقال مشاجع :

لن يكون إلا ما يسركن ، فما نحن إلا أسرى معروفه أينما حل ونزل .

وفى الصباح أعد مشاجع خمسمائة فارس وهو على رأسهم ، وهم أن يسير بهم مع عنترة وأخيه إلى ديارهما ، فأبى عليه عنترة ذلك ، فأقسم مشاجع أغلظ الأيمان أنه لا بد من ذلك .

وقال شيبوب :

من الرأى أن يصحبونا ، فقد يكون قومك فى حال خطيرة الآن ، وربما أغار عليهم بنو عامر فأرهقوهم ، لأنك غير موجود فيهم ، فإذا

كانوا معك أعانوك على خلاص قومك ، والمعروف لا يأباه صاحب المعروف .

فنزل عنترة على مشورة أخيه ، وسار جميعهم إلى ديار بنى عبس .

٢

بعد قدوم الربيع بن زياد إلى بنى فزارة ، بلغ سيدهم حذيفة نبأ خطير ، وهو أن خالد بن جعفر تأهب للمسير ، ليغزو بنى عبس وعدنان ، وفزارة وغطفان ، وأن دريد بن الصمة أيده بأربعين ألفاً بقيادة أخيه عبد الله ، فأخذ يستعد لملاقاة هذا الجيش الجرار ، ليدرأ عنه عادية هذا العدو ، ويشد أزر بنى عبس ، وبعث إلى الحارث بن ظالم ليمده بمعونة من رجاله ، ثم طلب الربيع ليطلعه على هذا النبأ ، وما دبره من أجله ، وليكونوا جميعهم يداً واحدة ، فقيل له :

إنه خرج إلى الحلل فى بعض شئونه — وكان الربيع قد خرج لينفذ مكيدته التى دبرها لاغتيال عنترة ليلا فى مكان سحيق من الصحراء .

ورجع الربيع من غيبته مشرق الوجه ، وضاء الجبين ، فأخبر حذيفة أن عنترة قد انتهت أيامه ، وقضى نحبه ، وسرد له ما دبر ، وعاقبة ما فعل ؛ فقال حذيفة :

لقد أحكمت التدبير ، ولكنك عجلت إلى تنفيذه فى وقت أحوج ما نكون فيه إلى عنترة .

فقال الربيع : ماذا تقصد ؟

فحكى له مادبره خالد بن جعفر لثل عروش بنى عبس وعدنان وفزارة وغطفان ، وما عزم عليه من القتال بجنوده وجنود الحارث صديقه ، تحت لواء الملك قيس بن زهير ، ليدرءوا عن أنفسهم هذا الضير .

فغضب الربيع وقال :

دع قيساً وشأنه ، حتى يذوق الهزيمة ، لتفل من حدة تكبره ، ونحن هنا قادرون على حماية أنفسنا وأهلينا ، ولا يضيرنا غضب قيس وقومه ، فنحن أشد منه قوة ، ما دام عنترة قد قتل .

فنزل حذيفة على رأى الربيع ، ولما جاءه رسول قيس يستنجده رده خائباً.

أخذ قيس بن زهير يستعد ليوم اللقاء بخالد بن جعفر ، فجند الجنود ، وزودهم بما اشتراه من الأسلحة ، وأمده بنو غطفان بأربعة آلاف تحت قيادة أميرهم حسان ، ولكن كان أسفه أليماً حينما ارتد إليه رسوله إلى حذيفة يحمل إليه نبأ استقلاله فى دياره وامتناعه عن معونته ، والتخلى عنه فى محنته ، وكان أسفه أشد إيلاماً فى نفسه عندما طلب عنترة ليشاوره فى الأمر فلم يجده ، وسأل عنه أمه زبيبة فقالت :

فى ليلة كذا سمع رجلا يستجير به ، فخرج هو وشيبوب ليجيره ، ولم

يعد حتى هذه الساعة ، ولا أدرى له مذهباً ولا مقرًا ، ولقد كان لهذا الفقد وقع سيئ فى نفس أسيد وعروة بن الورد ومالك بن زهير .

خرج قيس وجنوده ليصدوا من أتاهم بشره وخيله ، وفى اليوم الثانى من مسيرهم إليه ، التقى الجيشان واندلع بينهما لهيب الحرب ، وجعلت ألسنتها تلوك الفرسان ، فما كنت ترى إلا رمحاً يثقب ، وسيفاً يقطع ، ودماء تسيل ، وأرواحاً تزهق ، وجثثاً تلقى على الأرض ، وجاء الليل وبنو عبس فى أحرج مواقفهم ، فارتدوا إلى الوراء ، ووقفت رحى الحرب إلى غدوة اليوم القادم .

ولما طلع النهار عادت الحرب ، وحمى على بنى عبس لظاها ، وكانت دائرتها على بنى عبس وما انتهى النهار حتى نفد صبر قيس ، فتفقد رجاله وليس لمن بقى منهم قدرة على حرب أو قتال ، فقال :

أخشى أن يقضى علينا عدونا ، قبل أن يأتينا حاميتنا عنترة ، فلنعد إلى ديارنا وهناك نستميت دفاعاً وإقداماً ، فإما انتصرنا وإما متنا كراماً .

وجدّ قيس وفلول جيشه فى العودة إلى ديارهم ، وأدرك بنو عامر فرارهم فخفوا سراعاً على آثارهم ، فاجت أحياء بنى عبس بنسائها صائحات باكيات ، لاطمات نادبات ، حينما رأين قيساً مرتدًا بجيشه مقهوراً ، وجيش بنى عامر يتبعه فائزاً منصوراً ، وبات قيس يندب

عنترة متحسراً على غيبته ويقول :

رحماك ربى ! ماذا أجريت على عنترة من القضاء ، حتى فقدناه عندما حزب البلاء ، وأحدق بنا الفناء ؟ ! !

لم يستطع بنو عبس أن يقفوا فى وجوه بنى عامر فأفلتوا من ديارهم ، ولاذوا بالجبال ، عسى أن تحميهم من الأعداء ، وبنو عامر لا ينفكون يتبعونهم حتى يبيدوهم ، فقال قيس لجماعته : مدوا أجل الحرب بالمبارزة ، فعسى أن يمن الله علينا بعودة عنترة ، ليدفع عنا هذه الطامة الكبرى ؟

وأجابهم بنو عامر إلى ما طلبوا ، وتصدى غشم بن مالك لمبارزتهم ، فقتل ما ينيف على عشرين منهم ، وأسر شداد بن قراد وعروة بن الورد ، فاشتد بذلك الأمر على قيس ، حتى فكر فى أن يستسلم ما دام عجزه قد لاح وظهر ، وعنترة إلى هذا الحين لم يحضر ، ولكنه صاح فى رجاله أن احملوا غداً على بنى عامر حملتكم الأخيرة ، فعسى ربكم أن يجعل لكم بعد عسر يسرا .

وأشرقت الأرض بنور الصباح ، فهب قيس وجنوده ، ليصلوا نار الحرب ، وعقدوا عزمهم بينهم على أن يكونوا حطباً لها ، فهم لا يخرجون منها إلا إلى حياة نصر مجيدة ، أو ميتة دفاع كريمة ، واشتبك الفريقان ، واستمر القتل برجال ابن زهير ، حتى أوفوا على نهاية أليمة ، ومصير فاشل خطير .

وبينما الجيشان فى سكرة من نصر باهر يغمر بنى عامر ، وسكرة هزيمة منكرة تغمر جيش ابن زهير ، إذ أحاط بجيش خالد رجال كأنهم زبانية الجحيم ، أخذوهم بصيحتهم ، وتخطفوهم بسيوفهم ورماحهم ، ومن بينهم فارس أسود جال فيهم كأنه القضاء ، فمزق الصفوف ، وشرد الألوف ، وأبطل سعيهم ، وبدلهم بنصرهم فشلا ذريعاً ، وبثباتهم خوفاً وفزعاً ، فصحا يوم بنى عبس وأشرق ، وتلألأ نجم سعدهم من أفول ، وازدهر مجدهم من ذبول ، وكان هذا الفارس عنترة ، وهؤلاء الذين معه مشاجع ورجاله .

عرف خالد بن جعفر قدوم عنترة ، ورأى ما أوقعه بجنوده من هزيمة قاسية فاضحة ، فانفلت من المعركة انفلات المذعور الوجل ، وتبعه من بقى من رجاله ، يجرون على أعقابه ، كما ولت القبائل التى كانت تؤازره أدبارها ، ثم قال خالد لأصحابه وهو هارب بهم :

لا غناء فينا إن صبرنا على القتال وصابرنا ما دام عنترة قد حضر ، فلنذهب إلى معاقل الأسرى ، لنضعف شوكة بنى عبس بذبحهم ، ثم لنرحل إلى ديارنا ، لنأخذ أهبة جديدة قوية ، نقتل بها عنترة حاميتهم ، ونستأصل شأفتهم .

وكذلك فكر خالد غافلا عما خبأه له القدر ، فقد ذهب شيبوب فى أثناء القتال إلى معاقل الأسرى ، ففك قيودهم ، وخلى سبيلهم ،

وما كاد خالد يطل عليهم بجنوده ، حتى استقبلوهم بالسيوف والرماح ، فأيقن أن الأمر خرج من يده، ونادى فى جماعته :

الرحيل ، الرحيل ! قبل أن يعزز جانبهم عنترة ورجاله ، فتدور علينا دائرة أخرى ، بعد أن فررنا من الأولى ، وخفوا إلى ديارهم مسرعين . غير معولين على شيء مما تركوا ، وجاءت الأسرى إلى قيس، والتفوا جميعهم بعنترة حامدين له نجدته، ثم سأله قيس عن غيبته ، فقص عليهم قصته ، فقال قيس:

أحمد الله تعالى على جزيل إحسانه، وسابغ فضله، وشكراً لمشاجع ورجاله ، وإنهم من الآن إخواننا وأصدقاؤنا ، ولا بد أن نجزيهم بما فعلوا خير الجزاء ، ثم قال:

لقد كشفت عنا ما مسنا من ضر ، ولم يبق أمامنا إلا قتل خالد بن جعفر ، حتى نأمن ماله من بوائق وشر ، وحدثه بما فعل حذيفة من غدره واعتزاله ، وما كان من الربيع بن زياد من هجرته ، وإغرائه حذيفة على موقفه الغادر .

فقال عنترة : وكيف حال بنى فزارة الآن ؟

فقال قيس : بلغنى أن دريد بن الصمة أرسل إليهم جيشاً عظيماً بقيادة أخيه عبد الله لينسخ وجودهم ، تنفيذاً لما اتفق عليه هو وخالد ابن جعفر، وأخشى أن يكون قد ظهر عليهم ، وأمكن سيوفه من رقابهم ، والواجب الإنسانى يدفعنا إلى أن نسرع لنجدتهم ، وإن كانوا قد تخلوا عنا فى أحرج مواقفنا.

فقال عنترة : كيف أسير إلى معونة الربيع وحذيفة ، وهما يتمنيان لى أشنع ميتة ، ولكن ما دمت قد أمرتنا فأمرك مطاع ، وليكن ذلك بعد أن نودع رجال بنى خولان ، الذين غمرونا بما رأيت من العون والإحسان .

فقال مشاجع : إنما الفضل لك يا فارس العرب ، ولا يزال فى أعناقنا ما تعاقب الليل والنهار ، ولن أعود برجالى حتى أخوض بهم معكم غمرات القتال ، وتأمنوا على أنفسكم وأهليكم من محن الزمان ، فشكر له قيس جميل وفائه ، وصادق إخلاصه .

سار قيس ومعه فرسان بنى عبس ، ومشاجع ورجاله ، وعنترة ، إلى بنى فزارة ؛ فألفوهم فى حال من الضيق أشفت بهم على الاستسلام ، إذ كان عبد الله بن الصمة قد صب عليهم سوط عذابه ؛ وزاده طمعاً فيهم ، وتعجيلا بالقضاء عليهم ، قدوم خالد بن جعفر هارباً ، وإخباره إياه أن عنترة قد ظهر ، وأنه لا محالة آت إلى بنى فزارة ليدفع عنهم بؤسهم ، وينفس عنهم كربتهم .

وبينما عبد الله جاد فى تنفيذ خطته ، والتعجيل بالقضاء على بنى فزارة ، إذ جاء عنترة فألفاهم كمريض محتضر ، فأرسل على الأعداء صيحته ؛ وأفاض عليهم بفرسانه ، وأعمل فيهم سيفه وسنانه ، فمنهم من فزع وفر ، ومنهم من لقى حتفه ومات ؛ وانجلت الغمة عن بنى فزارة ، وغنموا أموالا جسيمة ، وبقوا فى مضاربهم آمنين.

٣

بعد إنقاذ بنى فزارة عاد عنترة إلى أرض بنى عبس ، ومعه بنو خولان، وأبوه شداد ، وعروة بن الورد وفرسانه الأجواد ؛ وأبى أن يلتقى بالربيع وحذيفة ، بعد أن طرد الأعداء عنهم ، وهناك أقام الولائم سبعة أيام، وفى اليوم الثامن منح مشاجعاً خلعة من ملابس الملك النعمان، وفصائل من النوق العصفورية الأصيلة، وخمسين ناقة من نوق جبل الدخان، ومنح فرسانه الخيول الحسان ، وودعهم إلى ديارهم ، فرحلوا شاكرين له ولقيس بن زهير عظيم كرمهم .

فرح قيس بهذا الفوز العظيم ، والنصر العميم ، وعرف أن عنترة لبنى عبس كالقوة لليد ، والنور للبصر ، والروح للجسم ؛ فكان له فى نفسه منزلة لا تطاول ، واتخذه أصدق خليل ، وأعز نديم ؛ ثم أسر إليه أنه يرغب فى قتل خالد ، حتى تصفو الحياة له ، ولا يتوقع شرًّا يأتيه من أية ناحية ، وبذلك يمكنه أن يفاوض عمه مالك بن قراد فى عبلة ، ليتم زواجها من عنترة، فإن تلكأ واثّاقل أرغمه على هذا الزواج ، غير عابئ بما يترتب على هذا الإرغام، لأنه فى أمن من أعدائه ، ولا يخشى أحداً منهم يعكر عليه صفو حياته، ويشغله عن أموره وشئونه .

وبعد انتصار فزارة ، وهزيمة عبد الله بن الصمة وخالد بن جعفر ، رحل خالد هذا إلى عشيرته، فى فلول من جيشه المنهزم فألفى الأحياء فى همّ عظيم ، وخوف عليه أن يصابوا فيه بقتله ، إذ سبقه إليها نبأ هزيمته على ألسنة الهاربين فلما حضر إلى قومه أزال من قلوبهم ما ساورها من خوف عليه وقلق ، وبعث الأمل فى نفوسهم بما وعدهم من الانتقام لهم وقال :

كان النصر حليفنا فى جميع مواقفنا ، وكدنا نقضى على بنى عبس فى المعركة الأخيرة، ولكن قدوم عنترة فى طائفة من بنى خولان حول مجرى الحرب، وبدل بنصرنا فشلنا الخاسر ، ولو تأخر عنترة يوماً واحداً لكان بنو عبس الآن قد قضى عليهم ، وزالوا من الوجود .

ثم اجتمع برجال عشيرته ، وأخذوا يديرون وجوه الرأى فيما عزم عليه من قتال بنى عبس ، فأجمعوا رأيهم بينهم على أن يسير خالد فى وفد من كبار قومه إلى العراق، يستصرخون الأسود والنعمان، ويحضونه على معاونتهم فى التخلص من عنترة ، الذى إن ترك وشأنه طمس مالهم من كرامة وعزة، وجعلهم على الدوام أذلة .

وكان الحارث بن ظالم فى صف بنى فزارة ، وهم يحاربون عبد الله ابن الصمة، دفاعاً عن أنفسهم، وصداًّ له عن ديارهم ، ولما ثقلت وطأة ابن الصمة عليهم واستيئس من نصرتهم انسلخ منهم وذهب إلى النعمان بن المنذر طامعاً أن يمده بجيش يدرك به بنى عبس وفزارة ، قبل أن يمزقوا .

واجتمع حينئذ فى العراق لدى النعمان بن المنذر رجلان لهما وجهتان متضاربتان؛ أما أحدهما فخالد بن جعفر الذى يستعدى النعمان على بنى عبس وعنترة، وأما الآخر فهو الحارث بن ظالم الذى يستنصر النعمان لحماية بنى عبس وفزارة وذبيان !

وكانت سلمى أخت الحارث بن ظالم متزوجة فى الحيرة برجل خبيث الطوية ، سيئ السيرة ، لا نخوة لديه ولا غيرة ، يدعى سنان بن حارثة، وكانت زوجته هذه قابلة لنساء النعمان ، والمنوط بها أمر أولاده وتربيتهم، وكان للنعمان حينئذ ولد يحبه يسمى شرحبيل ، وهو لا يزال فى حضانة سلمى هذه وكفالتها .

وكانت المتجردة كلما حضت النعمان زوجها على أن يثأر لأبيها قال :

إن قومك أشداء على أعدائهم ، بعنترة بن شداد حاميتهم ، ولا أذهب إليهم حتى يطلبونى، وكان يقصد بذلك أن تذل بنو عبس له .

ولما ورد الأسود مجلس أخيه النعمان، ألقى إليه شكايتى خالد بن جعفر ، والحارث بن ظالم ، فقال :

ليس أصلح فى رأيى إلا أن أرأب الصدع وأصلح بينهما ، ليعيشا متآلفين متعاونين وليكونا واسطة فى صلح القبيلتين ، فأحضر خالداً والحارث، وتعاهدا أمامه على أن يكونا أخوين متحابين متعاونين مدة

حياتهما؛ وأمر النعمان فأقيمت لهما ولكبار دولته وليمة فاخرة جمعت من ألوان الطعام والشراب ما تشتهيه الأنفس ؛ وبعد أن طعموا وشربوا سهروا يسمعون الأغانى وعزف الموسيقى ، ثم انفضوا إلى مضاجعهم .

وقلق الحارث فى جوف الليل وثارت غضبته ، لأن خالد بن جعفر أشاد بعنترة وشجاعته فى مجلس النعمان ، وأغفل شأن الحارث فى حديثه كأن لم يكن معروفاً بالبطولة والشجاعة، فأصر على أن يفعل فعلة تكون له فخر الدهر ، وذلك أن يقتل خالد بن جعفر ، وهو فى ضيافة النعمان وحماه .

ولما غشى الليل الأحياء ، وسكنت الحركة ، ونام الناس ، أخذ سيفه ودخل على خالد فى خيمته وذبحه وهو غارق فى نومه، ثم ركب جواده، وانسل من الأحياء إلى حيث لا يدرى له مذهباً ولا مضطرباً .

وفى الصباح دخل الأخوص بن جعفر على أخيه خالد فوجده مذبوحاً، فكاد يجن من هول الفجيعة، ولما ثاب إلى رشده ذهب من فوره إلى الأسود وأخبره أن خالداً أخاه قد اغتيل خفية، وما قتله إلا الحارث بن ظالم ، لأنه مجبول على الغدر والخيانة، ونقض ما أبرمه من عهود ، فأمر الأسود بالقبض على من كانوا معه من بنى مرة ، وذهب بهم إلى النعمان ، وأخبره بما فعله الحارث فارسهم ، فعز على النعمان أن يقتل أحد فى ضيافته وجواره، وأقسم ليقتلن الحارث شر قتله ، وأمر الفرسان أن

ينتشروا فى الصحراء ليدركوه أينما سار وذهب ، ويحضروه إليه على أسوأ حال ، لينفذ فيه وعيده ، ولكنهم لم يقعوا له على أثر ، فازداد به الغضب وأمر أن يصلب من كانوا معه من بنى مرة ، ولكن الأسود قال لأخيه النعمان :

حاشا لله أن تكون من الظالمين ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ولكن الرأى أن تحبسهم رهائن حتى نعثر على فارسهم الأثيم .

فنزل النعمان على رأيه ، وأودعهم فى معتقلهم خارج الحيرة ، فى حراسة عبيده وفرسانه .

أما الحارث فإنه لما ذهبت سكرته ، وصحا من نشوته ، وعاد إليه صوابه أدرك أنه أتى أمراً منكراً ، وأنه لا منجاة له من يد النعمان . فعقد عزمه على أن يعتزل العالم ، ويأوى إلى الكهوف والمغارات حتى يجىء أجله ، ولكنه تذكر صحبه الذين كانوا معه فى الحيرة ، فأصر على أن يعود إليهم فى جنح الظلام ، ليخلصهم ، ثم يذهب هو إلى حيث يشاء .

ولما وصل إلى الحيرة وجد الحراس غارقين فى نومهم حول معتقل أصحابه ، فذبحهم جميعهم بسيفه ، وأطلق أصحابه وقال لهم :

عليكم بعنترة وبنى عبس ، فاحتموا بهم ، واجعلوهم شفعاء لكم عند النعمان ، أما أنا فسأبقى فى هذا المكان حتى آخذ بثأرى قبل أن أقتل .

أفسح الحارث سبيل الهرب لأصحابه ، ثم دخل على أخته سلمى ،

فلما رأته فزعت لمجيئه ، بعد أن كان فى مأمن من الوقوع فى يد النعمان ، وقالت :

كيف مشيت إلى حتفك برجلك ، وقد كنت فى منجاة من يد النعمان وانتقامه ؟ !

فقال الحارث : إنما جئت لأخلص نفسى من هذا الجرم الشنيع ، إذ لا سبيل إلى إنقاذى إلا بمعونتك أنت .

قالت سلمى : وأنا لك يا أخى كما تريد .

قال الحارث :

أريد أن آخذ ابن النعمان شرحبيل ، وأدخل به فى الصباح على أبيه النعمان ، واستشفع به إليه أن يجيرنى من ذنبى ، ويعفو عنى ، فصدقته أخته ، وسلمته شرحبيل بن النعمان .

أخذ الحارث شرحبيل بن النعمان ، وكان قد قطع من عمره ثلاثة أعوام ، وانسل به إلى الصحراء ، وهناك رماه فى الهواء صاعداً ، وتلقاه بسيفه هابطاً ، فشقه السيف نصفين ، وتركه جثة هامدة ، وأسلم نفسه إلى الفرار .

غاب شرحبيل عن أمه ، ولم يأت به الحارث إلى أبيه النعمان ، فقلقت عليه أمه ، وشك فى الأمر أبوه ، فبحث عنه ، فوجده مشطوراً فى الصحراء شطرين . أصابت النعمان غشية من همّ وحزن ، واستعجمت

أمامه مسالك الرأى، فلم يكن لديه إلا صيحته فى فرسانه أن ائتونى بالحارث وإن كان فى باطن الأرض أو بين نجوم السماء .

نفرت جنود النعمان سراعاً إلى جوف الصحراء تبحث عن الحارث فعثروا عليه وأدركوه فى سبيله ، ولكنه التفت إليهم وقاتلهم قتال المستميت الذى أسلم نفسه إلى الموت ، وليس له فى الحياة رجاء ، فكانت له من ذلك قوة ، مكنته من هزيمتهم والفرار من أيديهم، وجدّ فى هربه وهو موقن أن القوم مدركوه ، وأنهم لا محالة قاتلوه ، وعز عليه أن يمسك سيفه أحد من بعده ، فألفى صخرة فى طريقه ، فضربها بسيفه ضربة قاسية يريد بها كسره واتلافه ، ولكن السيف شق الصخرة نصفين وهو لا يزال على سلامته ، وكان جنود النعمان يرون ما فعله وهم من خلفه، فلما وصلوا إلى الصخرة ووجدوا أنه شقها بسيفه ، ارتابوا فى أمره ، وهابوا لقاءه، وقالوا :

ما هذا إلا عفريت من الجن ، ولا قبل لنا بلقائه ، ورجعوا إلى النعمان وأخبروه أنهم لم يعثروا عليه فى أى مكان، وقد تاهت منا بعض الفرسان ، ونحن نبحث عنه فى الجبال والوديان ؛ فزاد غضب النعمان ، وأمر سناناً أن يحضره وإلا قتله فيه ، كما أمر أن يذاع فى القبائل أن النعمان قد جعل لمن يحضر الحارث بن ظالم ما يشاء من الذهب والفضة .

٤

فك الحارث أغلال الاعتقال عن صحبه ، وذهبوا كما أمرهم إلى قيس بن زهير وعنترة ، وقصوا عليهما ما كان من الحارث بن ظالم ، وقتله خالد بن جعفر ، وأمره إياهم أن يسرعوا إلى الملك قيس بهذه البشرى العظيمة، وكان سرور الملك بقتل خالد عظيماً ، وابتهجت الأحياء به، وفى نشوة الفرح بهذا النبأ قال قيس لمالك بن قراد :

أليست عبلة زوجة لعنترة ؟

فقال مالك: بلى يا مولاى؛ وهل بعد ذلك نحجز عن عنترة أمنية؟!

فقال قيس: ألم يعطك صداقها ؟!

فقال مالك: بلى .

فقال قيس:

ونريد أن يتم سرورنا بزفافها إليه، وليكن ذلك بعد ثلاثة أيام .

فقال مالك: ولا نريد إلا أن نكون فى فرح دائم .

ولما خلا مالك بزوجته فى بيته قال :

أصبح لعنترة عند الملك قيس من المحبة وعلو الشأن أكثر مما كان

له منهما عند زهير أبيه، وقد أصدر حكمه اليوم أن تزف عبلة إلى عنترة بعد ثلاثة أيام، ولكن ورب البيت لن أزفها إليه، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ومضى عنترة إلى بيت أمه وهو فرح بما سمعه من قيس فى أمر الزفاف، وفى الصباح دخل عليه شيبوب أخوه وقال :

إن أختك مروة فى بيت أبيها شداد تبكى بكاء حاراً، وقد بعثنى لأدعوك إليها، فهب عنترة منتصباً وقال :

لبيك يا مروة، ومن غيرك أفزع لدعوته ؟ ! !

ثم تقلد سيفه ومضى قدماً إلى لقائها .

ومروة هذه بنت شداد من زوجة أخرى غير سمية، تزوجت فى بنى غطفان من الحجاج بن الليث، الذى كان فى قومه كالغيث كرماً وجوداً، ورزقت منه بولد بهى الطلعة، جميل الخلقة، أسمته الهطال ولما كبر حذق الفروسية وبرز فيها حتى عرف بالبطولة والجرأة، وكان لخاله عنترة فضل مهارته فى الفروسية، لأنه كان يزور أخته ويقيم عندها فيخرج بالهطال إلى الصحراء ويقضى معه وقتاً طويلا فى تعليمه، حتى شابه فى الفروسية خاله .

دخل عليها عنترة وشيبوب فى بيت أبيها، فألفاها حزينة باكية، فقال : ما يبكيك يا مروة ؟ ! !

فقالت مروة : خرج ابنى الهطال فى جماعة من بنى غطفان أميراً لهم، يطلبون المال والغنيمة، وقد طالت غيبته، فشغل بالى، وبلبل أفكارى، وذهب بى الوسواس مذاهب كريهة، وقد رأيته فى المنام هو وجماعته فى دَحل وقف على بابه أسد يهددهم بالأكل ليلا ونهاراً، فانتبهت فزعة مولهة، ولبثت فى فزعى وقلقى حتى طلع النهار، وإذا بباب خيمتى عبد ضخم الجثة، رث الهيئة، يرجو طعاماً من ذوى المروءة والكرم، فأسرعت إليه بما تيسر من اللبن والقديد، وناولته إياه قائلة : ادع لغائبنا أن يئوب، فابتسم قائلا :

لعله الهطال من بنى غطفان ؟

فقلت : إنه هو، وأين هو الآن ؟

فقال العبد : إنه أسير لدى لقيط بن زرارة سيد بنى دارم، مررت به فأشفقت عليه وسألته عن حاله، فعرفنى بنفسه ونسبه وأسره، وحلفنى إن مررت ببنى غطفان أن أعلمك أمره، لتذهبى إلى خاله عنترة، حتى يدركه قبل أن يقتلوه، وقد وعدنى مالا وفيراً إن خلص من أسره.

وما كاد ينتهى العبد من حديثه حتى نهضت وجئت مسرعة إليك؛ وذلك ما أحزننى وأبكانى .

فقال عنترة : خففى من حزنك، وارجعى إلى دارك، فستجدينه بين يديك فى أقرب فرصة .

ثم قال لشيبوب : اذهب الآن إلى عروة ، وأبلغه أن يجهز نفسه ، وينتظرنى برجاله على أرض المريقب ، إذا أقبل الليل ، وانسدلت ستائر الظلام، ووصى أباه شداداً أن يكتم هذا الأمر ، ولا يبديه إلى أحد .

وكان عمه مالك بن قراد حاضراً فأحب أن يركب معه لمعونته ، فقال له عنترة : لا نود تعبك ، فاسترح وقم بإصلاح أمر عبلة .

وكان مالك قد سره هذا الحادث ، لأنه لم يكن فى نيته أن ينفذ الزفاف ، وكان قد عزم أن يذهب إلى الربيع ليدبر له حيلة تبطل إتمامه ، فقال : لقد أحزننا أسر الهطال ، وأقعدنا عن القيام بأفراحنا .

فقال عنترة :

لكل شيء وقت معلوم ، ومن طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، ولقد تعلم أنى لا أقعد عن إغاثة الأبعدين ، فكيف أترك ابن أختى فى اعتقاله ؟! ، وكيف تلهينى أفراحى عن إغاثته وإنقاذه؟!!

وترك عنترة عمه مالكا ومضى إلى المريقب فوجد عروة ورجاله فى انتظاره ، فساروا جميعاً إلى لقيط بن زرارة .

كان لقيط فارساً ثابت القلب جريئاً ، تبطل أمامه شجاعة الشجعان ، وكانوا يسمونه عقاب الحرب ، وله أخوة أشقاء ، عددهم ثمانية عشر ، وأمهم مارية بنت عبد اللات ، وجميعهم ينادون بالأمير أو السيد ، ومنهم الأمير حاجب بن زرارة الذى انعزل عن أبيه بعربه ،

ولما أصابهم قحط فى سنة من السنين رحلوا إلى كسرى وطلب حاجب منه أن يمتاروا فى أرضه على أن يؤدوا له الخراج الذى كانوا يؤدونه إلى النعمان ، فقال :

إنى إن تركتكم تمتارون رحلتم فى آخر العام وتفرقتم فى شعاب الجبال وأكلتم الخراج ، فإذا أحببتم أن تقيموا فى أرضى فدعوا رهينة عندى .

فقال حاجب : هاك قوسى رهينة.

فأخذها كسرى ونظر فيها وقال : إن قوسك معوجة .

فقال حاجب : ولكن حالى مستقيم .

فابتسم كسرى وقبلها رهينة على الوفاء ، وصار ذلك فخراً لبنى تميم .

وكان لقيط معجباً بنفسه ، مزهواً بشجاعته . متكبراً على إخوته ، قاسياً عليهم ، فشكوه إلى أبيهم ، فأحضره بين يديه وقال له :

لقد عزتك نفسك ، فاستكبرت على إخوتك ، دون مزية لك فيهم ، فإنى لم أرك ملكت ألف ناقة من عصافير النعمان ، وما تزوجت بدر اليمن بنت جابر بن رفاع ، وما بارزت حامية بنى عبس ، عنترة بن شداد .

فقال لقيط :

وإن أنا نلت بسعيي وكدى ما ذكرت كان لى عندك من الفضل والمزية ، ما يجعلنى فوق من أشاء ، من الأبعدين والأقرباء ؟

فقال أبوه : وتملأ فم الدنيا ثناء وفخراً .

فقال لقيط : ولن أرجع إلى الأوطان حتى أنال بساعدى ما ذكرته .

ثم انصرف إلى خاله عبد مناة بن عبد اللات ، وكان يحبه ويرعاه ، فذكر له قول أبيه ، فوعده أن يكون عوناً له فى نيل ما يتمنى .

وفى الصباح خرج لقيط بن زرارة وخاله عبد مناة ومعهما عبدان شديدان ، ومضوا يسيحون فى الأرض ابتغاء ما أشار به زرارة والده ، واتفق رأيهما أن يقصدا جابر بن رفاع ، ويخطبا بدر اليمن ابنته ، فإن استجاب لهما ذهبا إلى النعمان وأحضرا المهر نوقاً عصفورية.

وكان جابر ملكاً مطاعاً قوياً بجنده وغناه ، عاكفاً على عبادة الأصنام من دون الله، فصنع له صنماً وبنى له بيتاً على مثال البيت الحرام، ووضع الصنم على بابه وكانت ابنته بدر اليمن ذات جمال فاتن ، فبنى لها بيتاً ووهب لها صنمه الذهبى ، وأبى أن يزوجها إلا لمن يأذن به صنمه هذا .

ولما قرب لقيط وخاله وعبداهما من ديار جابر ، رأوا أرضاً واسعة ، وغدرانا صافية، وعيوناً نابعة وبهائم سارحة ، وطيوراً ساجعة ، ورياضاً مثمرة، وخياماً ومضارب ، وما إلى ذلك مما يدل على غنى واسع ، وجاه عريض؛ فنزعا عنهما ثياب السفر ، وارتديا ثياباً فاخرة ، تنطق بالغنى وكرم الجاه والحسب، واستقبلهما عبيد جابر ، وسألوهما عن حاجتهما ، فقال لقيط :

حاجتنا لا نذكرها لأحد غير الملك .

فذهبوا إلى جابر وأخبروه وذكروا له أوصافهما ؛ وكان الملك جالساً فى جمع من كبار حاشيته ، فقال لهم :

سلوا هذا القادم عن اسمه وحسبه ونسبه ، فإن وجدتموه لقيط بن زرارة من بنى تميم ودارم، فأكرموه وائتونى به ، وإن قال لكم غير هذا فاذهبوا به إلى دار الضيافة .

فعجب الحاضرون وقالوا :

ومن لقيط هذا الذى استبشرت بقدومه ؟

فابتسم وقال : لقد سألت صنمى أن يرزق ابنتى زوجاً شجاعاً من أكرم بيوت العرب وساداتهم، وأشرفهم حسباً ونسباً ، وقد رأيت فى المنام أن صنمى هذا جاءنى ضاحكاً مستبشراً وقال :

قد أجبناك إلى ما سألت، واصطفينا زوجاً لابنتك ، يدعى لقيط ابن زرارة، وهو فارس لا يسامى ، وقد رضيته لابنتك زوجاً ، فإذا طلب إليك يدها فامنحه إياها؛ وهذا هو زوج ابنتى ، الذى نبأنى عنه صنمى .

واستقبل جابر لقيطاً وخاله أكرم استقبال وأعظمه ؛ ثم سأله عن اسمه ، ومنزلته بين العرب وما جاء من أجله ، فقال :

أنا لقيط بن زرارة ، ذو الحسب الرفيع ، والنسب الكريم الممدود ،

والسطوة والقوة، والبأس الشديد . وقد جئتك راغباً فى ابنتك لى زوجة ، وأملى ألا أصدر من بيتك إلا شاكراً .

فقال جابر : لقد قضينا حاجتك ، قبل أن تشرق علينا بطلعتك ، ملبين فى ذلك أمر من لا نعصى له أمرا .

قامت الأفراح ثلاثة أيام ، نعمت الأحياء فيها بالرقص والغناء والولائم الشاملة، وأنجز الملك وعده فى اليوم الرابع مقرًّا أنه أخذ صداق ابنته ، وزفها إليه فى قصرها ونزل خاله فى دار الضيافة ينعم بالكرم والحفاوة .

أبت نفس لقيط أن تكون له زوجة من غير أن يقدم لها مهراً ، وخشى أن يلحقه من ذلك عار ومذمة .

فذهب إلى خاله، وأطلعه على ما فى نفسه ، فرضى عنه ، ودبر معه خطة الخروج فى الظلام إلى بلاد النعمان ، لإحضار المهر نوقاً عصفورية .

صحت بدر اليمن من نومها فلم تجد زوجها بجانبها ، ولا فى أى ناحية من قصرها، فجلست فى حجرتها ، وأسندت رأسها إلى يدها ، واستغرقت فى همها العميق، حتى جاءتها أمها ومن حضرت معها من قريباتها فى الصباح، فأخبرتهن أن زوجها غادر القصر ليلا ، ولم تقف له على أثر ، فدهشت أمها ، ومن حضرن معها ، وقلن : لقد أخطأ أبوها ، إذ أبى

أن يزوجها إلى الكبراء من سادات العرب وأمرائهم ، ثم يصطفى لها هذا الزوج الوضيع الذى لا كرامة له ولا نخوة ؛ وشاع هذا الهرب فى الأحياء ولما بلغ هذا الخبر أباها قال :

ما فعلت إلا ما أمرنى به صنمى ، فإن أخطأ أو أصاب فهو أدرى بما فعل وأعلم.

وبينما لقيط وخاله يضربان فى الصحراء ، إذ التقيا بالحارث بن ظالم فى منعزله الذى اتخذه من الجبل مقاماً ومأوى حتى لا يعرف النعمان ولا غيره سبيلا إليه ، وكان لقيط يعرف الحارث ، ويعرف أن النعمان طلبه وجعل لمن يحضره ما يشاء من الأموال، وكتب إلى جميع الجهات والقبائل بذلك ، وكان لقيط ممن وصل إليهم كتاب النعمان، فلما رآه قال لخاله :

وافرحتاه ! قد بلغنا المنى والمراد ، وأعلم خاله بمسألة الحارث والنعمان .

ولما عرف الحارث لقيطاً وما يخفى فى نفسه من الغدر وتسليمه للنعمان ، عمد إلى جواده فركبه يريد أن يفلت به ، ولكن لقيطاً لم يمكنه من فراره، فأطبق عليه ، وحاول الحارث أن يفلت منه بأية وسيلة ، ولكن الجوع كان قد أضر به فغلبه لقيط وأمسكه ، فوقف الحارث أمامه مستسلماً ضعيفاً تبدو عليه آثار المذلة والمسكنة ،

فقال الحارث :

بالله يا سيدى لا تمكن النعمان منى ، ولا تكن سبباً فى سفك دمى ، وإن عفوت عنى فلك عندى ما تشاء من الأموال .

فقال لقيط :

أدر كتافك .

فقال : سمعاً وطاعة ، ثم غافله وأمسك سيفه ذو الحيات وضرب لقيطاً به فجرحه فى رأسه ، ووقع كالمغشى عليه من شدة الضربة ، فبادره خاله وحمل عليه حملة قاسية استمرت مدة طويلة ، وهو لا يستطيع أن يأسره أو يقتله ، ثم أفاق لقيط وحمل على الحارث مع خاله ، فأسراه وكتفاه ، وربطاه على جواده ، بعد هذا العراك العنيف ، وسارا به يطويان القفار حتى أشرفا على الحيرة ، فألفيا النعمان جالساً فى قبته خارج المدينة وهو فى يوم نعيمه ، الذى ينال خيره فيه كل وافد إليه ، فأخبر جنود النعمان أنه أتى بالحارث بن ظالم ، ففرحوا وخفوا سراعاً إلى النعمان يبشرونه ، فابتهج واستبشر وقال :

احبسوا الفارس عنى حتى يمضى يوم نعيمى ، وائتونى بمن معه ، حتى أجزل لهم عطائى .

فصدعوا بما أمر ، وحبسوا الحارث فى مطمورة من مطاميره إلى أن ينتهى يوم نعيمه ، وجىء بلقيط إلى النعمان ، ففرح به

وأجلسه بجواره وقال له :

إن للقدر يومين بالنسبة لى : يوم بؤس ويوم نعيم ؛ أما يوم بؤسى فهو الذى قتل الحارث فيه ابنى ، وأما يوم النعيم فهو ذلك اليوم الذى جئتنى فيه بذلك الغادر الخائن الذى قتل ابنى وهو الحارث بن ظالم ؛ فاطلب منى ما تتمناه ، وعرفنى بنفسك ونسبك ، فقص عليه لقيط قصته ولم يدع منها صغيرة ولا كبيرة ، فقال النعمان :

سعدت يا بن زرارة ولك ما شئت من أموال ونوق عصفورية .

ولما انتهى ذلك اليوم رجع النعمان إلى قصره ، ولقيط بن زرارة معه ، فألفى جنة ونعيماً ، وملكاً كبيراً ، ولبث فى ضيافته هو ومن معه ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع منحه ألف ناقة عصفورية ، وخمسمائة من غيرها ، وحمل على أكثرها حريراً وطيباً وزاداً ومعها كثير من العبيد والإماء ، وشيعه فى حفل كبير إلى حيث شاء ، وسار هو وخاله إلى بلدر اليمن وهم ممتلئون فرحاً وغبطة .

وكان أبوها جابر فى مدة غيبته غرضاً لسهام الملام والعتب من قومه ، وهو يخفى كمده ، ويبدى جلده ، ويقول :

لا أصدق فى صهرى كلاماً ، ولا أرتاب فيما أمرنى به صنمى ، وستبدى لكم الأيام ما تجهلون.

وصل لقيط إلى جابر ومعه الأموال والنوق العصفورية ، فكان

لقدومه على تلك الحال العزيزة فرحة شملت الأحياء، وأخرست ألسنة العتب والملامة، وسأله جابر عن فعلته هذه فقال :

لقد مننت علىّ بزواجى من ابنتك ، وغمرتنى بفضل عظيم إذ أعفيتنى من صداقها ، ولكنى خجلت أن أتزوج من بنات الملوك دون أن أغليها بما يليق بها من صداق، فخرجت ليلا فى طلبه ، وساعدنى القدر فى الحصول عليه، وقص عليه ما جرى من ليلة انسلاله إلى يوم قدومه، فزادت غبطة الملك به ، وجددوا الولائم والأفراح ، وعاش مع زوجته غير قليل من الأيام، ثم أبدى لقيط رغبته فى الرحيل بزوجته إلى دياره، وقص عليه ما كان بينه وبين أبيه زرارة ، فأذن له ، وودعه خير وداع ، ومنحه شيئاً كثيراً من الأموال والهدايا .

وبينما هو سائر فى ركبه العظيم وأمواله الوفيرة التقى به الهطال ابن أخت عنترة فى فئة من بنى غطفان ، فقال له :

انزل عن جوادك، وأعطنى الأموال التى معك ، وإلا أسكنتك قبرك .

فاستخف به لقيط وقال :

لقد غرتك نفسك، فألقيت بها إلى التهلكة .

وحمل عليه حملة شعواء انجلت عن أسره ، وقتل بعض غلمانه ، أوسر بقيتهم ، ونزل بهم فى ذلك المكان حتى يستأنف المسير فى الصباح .

ولما ثوى لقيط فى منزله هذا أحضر الهطال بين يديه ، وسأله عن نسبه وقومه فقال :

أنا الهطال بن الحجاج من بنى غطفان ، وابن أخت عنترة بن شداد ، الذى قهر الجبابرة، وأذل رقاب الأكاسرة ، وفاق بفصاحته العرب : حاضرهم وباديهم .

فالتفت لقيط إلى خاله وقال :

لقد تيسر لى بذلك لقاء عنترة ومبارزته ، فإنه لا يسمع بأسر لقيط ابن أخته حتى يأتينى ، وحينئذ سترى من آيات الفروسية ما يجعلنى المثل الأعلى بين العرب فى البطولة . وإذا لم يأتنى سرت إليه فى جماعة من الفرسان فأهلكته ، وأفنيت قومه ، وأكون بذلك أخذت بثأر بنى عامر ، وذاعت شهرتى بين القبائل والعشائر .

ثم استأنف مسيره إلى أبيه، وهناك قص عليه رحلته، وقدم إليه ما جاء به من مال ونعم، ففرح به والده ، وأصلح ما بينه وبين إخوته . وجعلهم يدينون له بالولاء والطاعة .

أودع لقيط الهطال ورفقته السجن مكتفين، وأقام الولائم لفرسان عشيرته ، سروراً بفوزه، وافتخاراً بشجاعته ، وقد ألح عليه اغتراره بنفسه وقوته أن يعجل بلقاء عنترة بن شداد، فأنفذ إلى بنى غطفان ذلك العبد ، وقال له:

أخبر أم الهطال عن لسانه أنه أسير عند لقيط بن زرارة ، وأنه يطلب منها أن تخبر خاله عنترة ، ليأتيه وينقذه من أسره ؛ فذهب العبد إلى أمه وأخبرها ، فذهبت إلى أخيها عنترة باكية ، وأفضت إليه بما سمعت من ذلك العبد ، فطمأنها عنترة وتجهز للمسير إلى لقيط بن زرارة .

سار عنترة وشيبوب وعروة بن الورد وفرسانهم ، ولما قربوا من ديار بنى دارم ، أشار عليهم شيبوب أن يكمنوا فى الجبال حتى يذهب هو إليهم ويكشف أحوالهم ، ليرتبوا خطتهم على ما يرى من حالهم ، فنزلوا على رأيه ، وكمنوا حيث أشار عليهم ، إلى أن يعود إليهم .

وصحب شيبوب أخاه جريراً ، وقد لبس ثوباً قصيراً وعمامة كبيرة ، وانطلقا إلى أحياء بنى دارم ، فالتف حولهما العبيد ، وسألوهما عما يريدان فقال شيبوب :

نحن من بنى عامر ، حملنا رسالة إلى مولاكم لقيط ، من سيدنا الأخوص ، وفارسنا غشم بن مالك ، فقالوا :

اذهب إلى هذا البيت الكبير ، حيث تجد مولانا الأمير .

دخل شيبوب على لقيط ، فوجده جالساً فى ثلة من كبار قومه وساداتهم ، فحياه وقبل يده ، ثم قال :

حيا الله مولانا الأمير الأعظم ، ذا الأيد والقوة ، والفضل والمنة .

فقال لقيط :

وحييت من عربى ذى قول كريم ، وما حاجتك ؟

فقال : شيبوب إنى رسول الأخوص سيد بنى عامر إليك ، يقرئك السلام ، ويدعو لك بالعافية ، ويخبرك أن عنترة قادم إليك فى جمع غفير من فرسان بنى عبس ، لاستخلاص الهطال ابن أخته ، فخذ حذرك منه ، وتأهب للقائه ، واحرص على أن تأسر الحارث بن ظالم الذى قتل أخى فى قصر النعمان ، وتبعثه إلىّ على أن أمنحك من المال ما تشاء عوضاً منه ، وإن كنت قد قتلته فأرسل إلىّ رأسه ، ليكون فضلك ممدوداً عليه.

فطرب لقيط لحلاوة لفظه ، وعذوبة قوله ، وقال :

لله در قبيلة لعبيدها من سحر البيان ما يستميل الأفئدة ، ثم قال للرسول — وهو شيبوب — :

أما الحارث بن ظالم فقد أسرته ، وسلمته إلى من لا يرحمه ولا يستبقيه — وقص عليه قصة أسر الحارث وتسليمه إلى النعمان وما ناله من الأموال بسببه .

وأما الهطال فقد حبسته عندى فى معتقله ، أملا فى أن يجيئنى عنترة خاله ، لأبارزه وأظهر عليه ، فتسمو بين القبائل منزلتى ، وأكون قد حققت ما وعدته أبى ، وما كان لمثلى أن يبيع عدو صديقه بمال قل أو كثر . ولقد أقسمت لأغيرن على بنى عبس فلا أترك منهم دياراً ولا نافخ

نار ، وقد عولت الآن أن أخرج إلى عنترة لألتقى به فى البيداء ، قبل أن يطأ أرضى بفرسانه، وهذا ما دبرته وعملت له ، فأرسلت إلى أخته من أخبرها أنى أسرت ابنها ، وحضها على الاستنجاد بأخيها ، حتى يأتينى وأسفك دمه .

فقال العبد الذى نقل نبأ أسر الهطال إلى أمه ، وكان حاضراً :

ولقد صدق تدبيرك، فإنى لم أبرح أرض غطفان حتى غادرتها مروة أم الهطال إلى أخيها، ولا بد أن يكون الآن قد جمع جموعه وفى سبيله إليك .

قال شيبوب :

وأرى أن تخرج إليه فى جميع رجالك وفرسانك ، غير مخلف فى ديارك إلا نفراً قليلا ، حتى تقضى عليه الكثرة الساحقة ، ثم تذهب بهم إلى بنى عبس ، فتقهرهم وتغنم أموالهم ، وتسبى نساءهم ، وتعود إلى ديارك فائزاً منصوراً؛ أما أنا فكل إلىّ أمر الهطال ، حتى أشفى بتعذيبه غليل صدورنا مدة غيبتك، وقد تركت مولانا الأخوص يستعد لغزو بنى عبس فى غيبة عنترة، واشتغاله بتخليص الهطال من يدك ، وقد عرف الأخوص ذلك من عيونه المبثوثة فى بنى عبس ؛ والمكلفة بنقل أخبارهم إليه من حين إلى حين ، وبعد عودتك من تلك الغزوة رابحاً منصوراً أرجع أنا إلى الأخوص ، وأرفع إلى مسامعه ما يطرب له من أنباء فوزك ونصرك.

فقال لقيط :

وما دامت لكم عيون منبثة فى بنى عبس فلا بد أن تكونوا عارفين عدد الفرسان الذين خرج بهم عنترة لاستخلاص ابن أخته .

وأراد شيبوب أن يحمله على أخذ رجاله جميعهم إلا قليلا منهم ، فقال :

لقد خرج عنترة فى ألف فارس من بنى عبس وكل فارس منهم بأربعة أو أكثر من فرسان القبائل الأخرى .

فثار غضب لقيط وقال :

ما أشأم هذا العبد! وما أقبح لؤمه ! سأخرج إليه بجموع من رجال تجرعه هو وجماعته كئوس المنايا .

ثم أمر أن يوكل أمر الهطال إلى عبد الأخوص — شيبوب — ووصاه ألا يني عن تعذيبه وإيذائه .

فقال شيبوب :

سوف ترى ما يحل به من أليم العذاب .

وفى الصباح ركب لقيط فى ثلاثة آلاف من الفرسان ، وجعل على حماية الأحياء خمسمائة فارس ، وأوغل فى المسير حتى ترك عنترة ورجاله من خلفه، دون أن يعلم عنه وعنهم شيئاً ، وهم عاكفون فى مكامنهم حتى يجيئهم شيبوب بما علم ، ويشير عليهم بما يرى .

ولما خلت الأحياء من الرجال بعث شيبوب أخاه جريراً إلى عنترة يخبره بما فعله ، وأن لقيطاً سار فى ثلاثة آلاف فارس إلى بنى عبس ، ولم يترك فى أحيائه إلا خمسمائة ، ويستعديه للإغارة وتخليص الهطال وجماعته؛ ففرح عنترة لهذا التدبير الحكيم وسار فى رجاله إلى ديار بنى دارم، وهناك كانت رجفة الزلزال ، وثورة البركان ؛ فقتل ثلاثمائة فارس، ولاذ الباقون بالصحراء ، وأطلق سراح ابن أخته ومن معه ، ورجع بجيشه ومعه من الأموال والمغانم شىء كثير ، وعف عنترة عن سبى النساء وإيذاء الأطفال فى غيبة رجالهم وفرسانهم مع لقيط بن زرارة .

٥

رجع عنترة وجيشه فائزاً غانماً ، واستمر شيبوب رائداً لهم فى سيرهم حتى نزل بهم على ماء يقال له ماء العوام، فباتوا فيه واستراحوا ، ثم استأنفوا المسير حتى أشرفوا على ديار بنى عامر ، فنزل بهم شيبوب دونها حتى جاء الليل، ثم أمرهم أن يشدوا رحالهم ويسيروا ؛ فجدوا فى المسير وشيبوب يستحثهم حتى جاوزوا ديار بنى عامر وأبعدوا ، وكان ذلك فى الصباح، فهنأهم شيبوب بسلامتهم ؛ فقال عنترة :

كيف تهنئنا بسلامة هى معنا ما دامت سيوفنا فى أيدينا ، وأنفاسنا تتردد فى صدورنا والله معنا ؟!

فقال شيبوب :

يا أخى ! أنت تعلم ما بيننا وبين بنى عامر من العداوة والبغضاء ، وإنْ هم شعروا بمرورنا فقد يخرجون إلينا، ويعوقون مسيرنا ، ونحن أحوج ما نكون إلى سرعة الوصول إلى ديارنا ، خشية أن يكون قد مسها الضر فى غيبتنا من أحد أعدائنا .

فقال عنترة :

لو علمت ذلك منك ما أعرته أى اهتمام ، ولكنت أغرت على بنى عامر ، وسقيتهم كئوس المنايا .

ثم ساروا طالبين ديارهم ، فإذا غبار كثيف قد ملأ الأفق على بعد، فقال شيبوب :

هذا غبار بين أيدينا ، وهو مقبل من ناحية أرضنا وأرض بنى فزارة، وأخشى أن يكون لقيط بن زرارة واصل سيره بجيشه إلى ديارنا حين لم يجدك أمامه ، ودهاهم بداهية ثم رجع ؛ أو أن بنى عامر بلغهم مسيرك إلى بنى دارم فغزوا ديارنا فى غيبتك ، ورجعوا منها غانمين ؛ وأرى أن ننتظر فى هذا المكان متأهبين للقتال ، حتى ينكشف الأمر وتظهر الحال .

ثم بان لهم الغبار عن جيش جرار من فرسان وأبطال ، ومعهم أموال ونساء وأطفال ، وفيهم عويل وصياح وبكاء ، تدوى فى الأجواء ، فقال شيبوب لأخيه :

دهينا فى الأموال والعيال بهذا الجيش الجرار ، وإن صدق ظنى فهو لبنى عامر وبنى غنى وبنى كلاب .

فقال عنترة : صدقت يا شيبوب ، وهذا صوت عبلة ، وصياح نساء بنى عبس وبنى قراد تردده الأصداء .

وكان صدقاً ما ظنه شيبوب وعنترة ؛ فإن الأخوص بعد أن قتل الحارث بن ظالم أخاه خالد بن جعفر فى قصر النعمان عاد إلى بنى عامر وفى قلبه نار تلظى من بنى عبس ، فأقام عليهم العيون ليأتوه بأخبارهم ، ولما علم أن عنترة رحل إلى بنى دارم لاستخلاص الهطال ابن أخته سار ومعه غشم بن مالك فى خمسة آلاف فارس ، وغزوا الحى فى ظلام الليل وأكثرهم نيام ، فانتقموا منهم شر انتقام ، وهرب قيس وإخوته ، ومن تبعهم من فرسان عشيرته إلى ديار بنى غطفان ، ومنهم من لجأ إلى بنى فزارة ، ورجع بنو عامر فى الصباح يحملون أموالهم ويسوقون أسراهم وسباياهم ، ونشطوا فى سيرهم إلى ديارهم ، فرحين بهذا النصر العظيم ؛ وكانت عودة ملاعب الأسنة عاجلة ، مخافة أن يرجع إليه قيس بن زهير فى نجدة من بنى غطفان وبنى ذبيان ، وما زالوا سائرين حتى

التقوا بعنترة ، فثارت ثائرة عنترة ، وأمر رجاله أن يثبتوا ولا يهنوا ، وأن يحموا ظهره ، واشتعلت نار معركة حامية بين فئة قليلة من فرسان قلوبهم أثبت من الجبال الراسيات وهى فئة عنترة ؛ وفئة كثيرة ساحقة هى فئة الأخوص وغشم ، ودامت المعركة جميع النهار وهى تأكل فرسان بنى عامر أكلا ، وعنترة والهطال وعروة وشداد يقتحمون الصفوف ، فينهار بسيوفهم بنيانها ، ويلقون الرءوس على الأرض بسيوفهم خضوعاً وذلا ، حتى تنكرت للأعداء قوتهم ، وتناقضت كثرتهم ، وبدت لهم خيبتهم ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، فقرت السيوف فى أغمادها حتى الصباح .

وفى أثناء الليل قال الأخوص لرجاله :

أخشى أن يطول بنا القتال ، حتى يعزز عنترة بقيس بن زهير ورجاله ، فإنى أعتقد أنه لا يتركنا ، ولكنه سيقتفى آثارنا بعد أن يسترد قوته ويجمع جموعه ، وأرى أن نرسل الأسرى والسبايا والأموال التى غنمناها فى هذا الليل المظلم إلى ديارنا مع مائة فارس من فرساننا ، وفى الصباح نقابل عنترة بحرب طاحنة ، فإن ظفرنا به فقد نلنا أمنيتنا ، وإن ظهر علينا فررنا إلى ديارنا ، ونكون قد ربحنا ما غنمناه من الأموال والأسرى .

فقال ملاعب الأسنة :

ذلك رأى صائب ، فإن عنترة إن جرى خلف النساء والسبايا

ليخلصهن ويخلص عبلة حملنا على رجاله وهزمناهم ، وإن لبث يحارب معهم كان مشغول البال مشتت الفكر من أجل عبلة ، فلا يحسن الطعن والضرب ، ويكون كأحد فرسانه ، لانخشى له بطشاً ولا بأساً .

وفى غلس الظلام أرسلوا السبايا والأموال مع مائة فارس إلى الديار ومعهم دليل يرشدهم إلى الطريق .

ولما طلع عليهم النهار التقى الفريقان ، وكان عنترة أول من جال فى ساحة القتال ، وهو لا يعلم ما دبروه ونفذوه من إرسال السبايا والأموال إلى الديار ، فنادى :

يا بنى عامر ! تعالوا إلى المبارزة ، فارساً لفارس ، أو ألوفاً لفارس ، أو بنى عامر جميعها لفارس؛ فقد جئتكم بالمنايا ، أسقيكم كئووسها ، وأجرعكم مرّها ، وأحرم عليكم أن تعتدوا على الآمنين .

فأثار هذا القول الحماسة فى صدور بنى عامر ، وتدفقوا كالسيل من كل جانب ، ورأى بنو عبس ذلك منهم ، فانقضوا عليهم انقضاض الصاعقة ، وحمى وطيس الحرب ، واشتد الصراع والضرب ، حتى طعم بنو عامر مرارة الهزيمة ، وأحسوا بأس القتال وشدته ، وأوشكوا أن يفروا ويهربوا ، وأمسك عنترة ملاعب الأسنة من درعه ورجّله ، وهمّ أن يكتفه ويأسره ، وإذا بصياح جيش قادم يدوى فى الجواء ، وغبار ثائر يملأ الفضاء ، وما أسرع ما اختلط هذا الجيش ببنى عامر ، وأعملوا

أسلحتهم فى بنى عبس أعدائهم ، فخلى عنترة فى الحال سبيل ملاعب الأسنة ، واستقبل هذا الهجوم بهجوم أقسى منه ، وكان هذا جيش لقيط بن زرارة الذى انضم به إلى صفوفهم ، فرأب الصدع ، وأقام المائل ، وعوض المفقود ، وبدل من ضعفهم قوة ، ومن خوفهم ثباتاً وجرأة ، وغير مجرى الحرب ، ودارت على بنى عبس دائرتها وجرح عنترة وأبوه ، وأسر عروة بن الورد وجماعة من بنى عبس وردت إلى الأعداء أموالهم وأسراهم ، وكان الليل قد أقبل ، فأبطل عملها ، وأسكت حراكها ، وانتحت كل طائفة ناحيتها .

اجتمع لقيط بن زرارة بالأحوص بن جعفر ليلا ، وحدثه حديث شيبوب ومكره به؛ وكان مما قاله له ؛ ولقد كان رجوعى إليكم أمراً لا يخطر لى على بال ، ولكن القدر أتاح لى أسبابه ، وذلك أنى التقيت فى طريقى بمائة فارس من بنى فزارة ، فحسبتهم طليعة لجيش عنترة ، فسلطت عليهم رجالى ، فقتلوا منهم ، وأتونى ببقيتهم أسرى ، ولما سألتهم عن حالهم قالوا :

لقد خرجنا نطلب عنترة لنفتك به ، فقلت : إنكم لكاذبون ، لأنكم فزاريون وعبسيون ، وهذه ملابسكم تدل على ذلك ، وما خرجتم إلا لتكونوا له جنداً ، يقاتل بسيوفكم لقيط بن زرارة ، ليستخلص من يده ابن أخته الهطال .

فقالوا : لا يريبك أننا فزاريون وعبسيون ، فإننا لا ننكر أنسابنا ، ولكننا ما خرجنا إلا لقتل عنترة ، وذلك أن مالك بن قراد أرسل إلى الربيع بن زياد ، عند حذيفة بن بدر وقال له : أغثنى بقتل عنترة ، فقد خرج إلى قتال بنى دارم ، وهذا لأن قيس بن زهير بدأ يرغمنى على زفاف ابنتى عبلة إليه ، وقد كنت عولت على الرحيل بها إلى العراق مستنجداً بالنعمان ولكن خروجه لقتال بنى دارم أقعدنى ، فربما لقى فى هذه الغزوة حتفه ، وعملا بمشورة مالك بن قراد ، أرسلنا حذيفة والربيع لنعثر عليه ونقتله ، فالتقيت أنت بنا ، وفعلت ما فعلت .

قال لقيط بن زرارة :

وجاءنى بعض المنهزمين من قومى ، فقصوا علىّ ما حل بهم من عنترة ، وأخبرونى أنه فى سبيله إلى دياره عن طريق بنى عامر ، فأسرعت راجعاً إليكم وكان ما رأيت .

وكذلك قص الأخوص عليه حديث إغارته على بنى عبس ، وطردهم من ديارهم ، وسلبهم أموالهم ، وسبيهم نساءهم ، حتى التقى بعنترة ، وكان ما رأى .

فقال لقيط :

أما إبادة بنى عبس فقد أصبحت أمراً محتوماً ، لا ينبغى لقبائل العرب أن تسكت عنه ، حتى لا يكون لهم وجود ، وذلك ما أصررت عليه ،

بعد أن أجمع على تنفيذه رؤساء القبائل معنا .

وأما عنترة فقد لبث كثيراً من ليلته يثبت قلوب رجاله ، ويبعث فيهم استبسالا واستماتة ، ويعدهم فوزاً عظيماً ، لأنه كان يخشى على رجاله أكثر من خشيته على نفسه ، وقال لهم : لم يبق من أجلى إلا هذه الليلة أو آخر يومها ؛ لأنى سألقى بنفس غداً فى ساحة القتال ، وأعير الأعداء بأنهم يعتمدون على كثرة العدد لا على الشجاعة والجرأة والفروسية ، وأدعوهم إلى المبارزة فإن استجابوا أفنيتهم وإن كانوا عدد الرمال ، وإن أبوا إلا أن يبغوا علينا بكثرة عددهم شققت صفوفهم ، وبعثرت كثرتهم ، وحلت بينكم وبين سيوفهم وأسنة رماحهم حتى ترجعوا إلى أرض الشربة والعلم السعدى ، أما أنا فلن أتركهم حتى تكون القاضية عليهم أو ألقى حتفى .

فقال أبوه :

والله لن ننفض من حولك ونتخلى عنك حتى نلقى الذى تلقاه وإن أنفقنا فى سبيل ذلك أرواحنا .

وردد قول أبيه من معه جميعاً . وباتوا على هذا العزم مرتقبين غداً مشيئة الله فيهم .

وفى الصباح جال عنترة فى الساحة وقال :

أرونا شجاعتكم ، واخرجوا لمبازرتى ؛ فمن أراد أن تثكله أمه ،

أو تفقده زوجته ، أو ييتم ولده — فليتقدم .

وما كاد ينتهى من قوله هذا حتى ظهر فى الجو جيشان قادمان ، أحدهما من ناحية بنى عامر ، والآخر من ناحية عبس ؛ فشخصت أبصار الفريقين المتحاربين ، وحارت الألباب ، ووجم الجميع ، وساد الميدان سكون عميق وارتقب جميع المتحاربين هذين الجيشين القادمين ، من ناحيتين مختلفتين ، وساور كل فريق آمال وأوهام .

كان الجيش القادم من ناحية بنى عامر ذا مصير عجيب ، إذ بدد ما ساور أذهان الفريقين المتحاربين من ظنون فقد حسبه بنو عامر لهم وظنه بنو عبس عليهم ، وما كان أمره إلا على النقيض من ذلك ، إذ كان مؤلفاً من أسرى بنى عبس الذين أرسلوا مع الفرسان ، وعلى رأسهم الحارث بن ظالم ، الذى سلمه لقيط بن زرارة إلى النعمان ، ومنحه النعمان فى ذلك أموالا كثيرة ، وألف ناقة عصفورية ، وكان الحارث يصيح قائلا :

أبشر يا أبا الفوارس ، أنا الحارث بن ظالم ، جاءك يسعى ، ليسقى أعداءك شراب الموت الحميم .

ذلك شيء عجيب يثير الدهشة ، أسرى بنى عبس يعودون لمناصرة عنترة ؟ ! وعلى رأسهم الحارث بن ظالم الذى هو فى قبضة الملك النعمان ؟ !

كيف يكون ذلك ؟ ! لو عرف المرء أن الأقدار فوق العقول ما تحير ولا اندهش ، وإليك حادثة تأليف هذا الجيش .

٦

علمت المتجردة بنت الملك زهير ، وزوجة الملك النعمان ، أن لقيط بن زرارة جاء النعمان بالحارث بن ظالم ، وأن النعمان حبسه حتى يقتله ويصلبه ، فى جمع حافل بالملوك والأمراء وكبار العشائر ، بما فعله من قتل ابنه شرحبيل ، ومن قتله خالد بن جعفر فى قصره — لما علمت المتجردة ذلك — أحبت أن تجزى الحارث خير الجزاء ، لأنه قتل خالد بن جعفر الذى قتل أباها زهيراً ، فكلفت خمسة من عبيدها الذين تثق بهم ، والذين قدموا معها من ديارها ، أن يذهبوا خفية فى سكون الليل ، ويطلقوا الحارث من سجنه ، ويعطوه جواداً كريماً ، وعدة حرب كاملة ، ويقولوا له :

إن المتجردة أمرتنا بذلك ، وتوصيك أن تذهب إلى أخيها قيس ، وعنترة بن شداد ، فتقيم فى حماها آمناً من كل سوء ؛ ووصتهم أن يكتموا هذا عن أى إنسان ، حتى يطويه النسيان . فذهب العبيد ،

وقتلوا حراسه الثلاثة وهم نائمون ، ونفذوا ما أمرتهم به المتجردة ، وباتوا ليلتهم وكأنهم لم يفعلوا شيئاً .

انطلق الحارث من سجنه ، وظلام الليل يستره ، والشك فى نجاته يخامره ، ولهذا كان يسرى ليلاً ، ويختبئ نهاراً ، حتى عبر أرض بنى عامر ، واطمأن على نفسه ، فجد فى السير آمناً إلى أرض الشربة والعلم السعدى ، ولمح فى سيره أسرى بنى عبس وأموالهم مع المائة فارس الذين أرسلهم الأخوص بن جعفر ، فحاد عنهم وغير طريقه محاولا أن تبتلعه الصحراء ولا يدركوه ، لأنه قتل خالد بن جعفر سيدهم ، وكان تغيير طريقه مثار ريبة فى نفوس المائة فارس ، فطمعوا فيه وطلبوه ، فلما رآهم جادين فى طلبه ، وأنهم لا بد مدركوه ناداهم قائلاً :

غركم الطمع فى وحدتى ، وجهلتم شجاعتى وصولتى ، فأنا الذى قتلت خالداً سيدكم وألبستكم ثياب العار الأكبر .

فقال بعضهم لبعض — وكانوا لا يعرفون من ذلك الفارس — :

هذا هو الحارث ، فدونكم وإياه لنقتله ، ونأخذ بثأر خالد سيدنا ، ونمحو العار عنا .

وحمل عليه الفرسان المائة حملة واحدة ، ولكن الحارث صدع صفوفهم ، وأسال دماءهم ؛ وما ثبتوا بين يديه غير ساعة من النهار ، وأهلك منهم

سبعين فارساً ، وطلب الثلاثون الباقون الفرار هرباً . ولكن عبيد بنى عبس كانوا قد انتهزوا فرصة انشغال الفرسان المائة بقتال الحارث وطلبه فحلوا وثاق الأسرى من بنى عبس ، فحملوا أسلحتهم واستقبلوا الثلاثين فارساً الذين يطلبون الهرب ، فسدوا منافذ السبل فى وجوههم ، وأعملوا فيهم سيوفهم حتى أفنوهم جميعهم .

ثم شكروا للحارث جميل معروفه وقصوا عليه قصتهم ، وبلغوه أن عنترة الآن يقاسى من عناء القتال وأهواله ما لا تحتمله الجبال ، فحكى لهم الحارث قصته ثم قال :

وإنى أحب الآن بنى عبس ، وإنى مدين لهم بحياتى ، لأن المتجردة هى التى نجتنى من موت محتوم ، وقد كنت ذاهباً إلى قيس أخيها وعنترة ابن شداد لأقيم فى حماهما ، ولكن علينا الآن أن نذهب من فورنا إلى عنترة ، لنشد أزره ، وندفع عنه ما أحاط به من خطر ، وإن كنا على يقين من أنه قاهر أعداءه ، وإن كان وحده ، وهم ألوف مؤلفة ، ثم سار بهم وهو على رأسهم حتى قدم عليهم من ناحية بنى عامر ، وذلك هو الجيش الأول .

أما الجيش الثانى فقد جاء به الملك قيس بن زهير ، وذلك أنه رجع إلى دياره بعد أن فر منها هرباً من أعدائه ، وجعل يجمع الجموع ويجند الجنود ، حتى عبأ جيشاً عدته ثلاثة آلاف فارس ، من أبطال بنى

غطفان ، ليخلصوا الأسرى وينتقموا من أعدائهم ؛ وكان بنو فزارة قد تخلوا عنه هذه المرة بإغراء من الربيع بن زياد وحذيفة بن بدر ، حتى أبصر غبار بنى عامر ، فكشف رأسه وحمل عليهم منادياً :

يا لعبس ! يا لعدنان !

ونادى الحارث :

يا لمرة ! يا لذبيان !

وتبعه جيشه ، وكانوا أشد منه حملة وحماسة . وسمع عنترة ذلك النداء، فاطمأن قلبه ، وحمل معهم فى جرأته الساحقة .

وصل الجيشان وجيش لقيط بن زرارة على يقين من نصره ، وأنه موشك أن يقضى على عنترة ورجاله القضاء الأخير ، ولكن الجيشين خاضا غمار حرب طاحنة ، كان جنودهما فيها شياطين مَردة ؛ نزلوا على لقيط وجنوده نزول البلاء، ففرشوا ساحة القتال بجثثهم ، ورأوا المنية رأى العين تحصدهم حصداً ، ولم ينته اليوم حتى سقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد سحقوا سحقاً ، فباتوا ليلتهم فى حزن شامل ، وأسف عظيم .

أما عنترة وقيس والحارث فقد أمضوا ليلتهم هذه فى فرح عميم ، وجلس الحارث بن ظالم إلى قيس وعنترة وقص عليهما قصته إلى أن جاءهم بالأسرى من بنى عبس بعد استخلاصهم من المائة فارس ، وأخبرهما أن المتجردة لها فضل نجاته ، وأنه فر من النعمان ليعيش فى كنفهما

وجوارهما ، فشكروا له وفاءه ، ووعدوه أن يكون فى حمايتهم ، بحيث لا يستطيع مخلوق أن يمسه بأذى .

وفى الصباح قامت الحرب بين الطائفتين ، فوجد لقيط وجنوده ، من عنترة وأعوانه ما لم يخطر لهم على بال ، من ألوان الموت والدمار ، فما اسطاعوا لهذا القتال صبراً ، وفروا من الميدان هرباً ، مخلفين كثيراً من الأموال والأسرى .

ولما جاء الصباح رحلوا بما غنموا ، وأعطى عنترة عمه مالكاً ما غنمه من بنى دارم ، ليجعل منه معونة للعرس والولائم .

فقال عمه :

أبشر يا عنترة بما تحب ؛ فعبلة أمتك ، وأهلها خدمك ، ولكن يابن أخى أود أن تصبر حتى تستكمل جمالك ، وتستوفى هدوءك ، لتتم أفراحنا على أحسن حال .

وما كان عمه جاداً فيما قاله ، إذ كان يخفى نقيضه فى صدره، وانطلى على عنترة زوره وكذبه ، فاطمأن قلبه ، وهو لا يدرى ما خبأه له عمه .

ولما قروا فى ديارهم أمر قيس مالكاً أن يزف ابنته إلى عنترة ، فى مدى ثلاثة أيام ، حتى ينتهى من أمرها قبل أن يجد جديد ، إذ كان يتوقع أن سيرسل النعمان فى طلب الحارث بن ظالم ، وربما سبب ذلك حرباً بينهما ، فتكون معوقة عن زفاف عبلة إلى عنترة .

وعاد إلى أحياء بنى عبس أنسها بهذا الانتصار العظيم ، وأقام الحارث فى بيت عنترة ، وخضع لهم رغم أنفه ، إذ كان مجبولا على الغدر والخيانة ، ولكنه لا يستطيع ذلك الآن ، لأنه لا يجد ملاذاً يلوذ به وحصناً يحميه من النعمان ، إلا قيساً وعنترة .

٧

اجتمع مالك بن قراد بابنه عمرو ، وشكا إليه أمر قيس له أن يزف عبلة إلى عنترة ، وأنه فى أحرج مواقفه وأخطرها ، إذ لا يزال كارهاً زواج ابنته من عنترة ، فقال ابنه :

ذلك ما ضمت عليه جوانحى ، وليس لنا مخلص إلا أن نرحل إلى حذيفة بن بدر ، ونطلعه على حقيقة الأمر ، أو أن نبعث إلى الربيع بن زياد كتاباً نبين فيه ما انتهى إليه أمر عبلة ، ونشير عليه أن يبعث إلى النعمان من يخبره أن الحارث بن ظالم يعيش عيشة راضية ، فى كنف قيس وعنترة ، وأنهما أقسما أن يحمياه من كل إنسان حتى النعمان نفسه ، فلعل ذلك يوغر صدر النعمان ، ويأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، وحينئذ نأوى بعبلة إليه ، ونزوجها ممن نشاء غير هذا العبد اللئيم . فصدع أبوه مالك بمشورته ، وأنفذ إلى الربيع الكتاب الذى أشار به .

كان الربيع نفسه يتوقع هذا المصير ، وأن عبلة ستزف إلى عنترة ؛ ففكر فى كيده ، والحيلولة بينها وبينه ، وانتهى تفكيره إلى مكيدة خطيرة بعث بها إلى مالك بن قراد والد عبلة ، ليشترك معه فى تنفيذها ، ولكن الله قيض لعنترة من يخبره بها ، فقد جاءته خميسة أمة عبلة خفية ، وأسرت إليه بتلك المكيدة ، فقالت :

جئتك فى أمر خطير ، حرصاً على حياتك من العطب ، فاكتمه ولا تذع سره ، فقد أخبرنى به مكتوم بن عماد ، رسول الربيع بن زياد إلى عمك مالك بن قراد ؛ ولولا أنه مشغوف بحبى ما أطلعنى عليه .

فقال عنترة لخميسة : قولى ، ولا تخافى له ذيوعاً وإعلاناً ، فهو من لسانك إلى قلبى ، ولن يتحرك به لسانى .

فقالت خميسة :

إن عمك مالكاً كاذب فى وعده إياك أن يزف إليك عبلة ، وإنه ليخفى فى صدره من الغدر والكراهية ما لا يبديه لك ، وقد أرسل إليه الربيع بن زياد أن يخرج بك إلى غدير ذات الأرصاد ، للتحدث معك فى شئون الزفاف ، وهناك يأتيك الربيع بجنوده ، فينقضون عليك ويقتلونك ، ثم يحدثون جروحاً فى مالك عمك وابنه عمرو ، لتستر سرّ هذه الجريمة الآثمة ، حتى إذا ما سأله قيس فيها ، أجاب أنه كان معك فى غدير ذات الأرصاد تتحدثون فى أمر الزفاف ، فطاف عليكم رجال لا تعرفونهم ،

وشنوا عليكم غارتهم ، وكانت عاقبتها هلاككم ، وما تركوا فى أجسامهم من جروح ؛ وأخبره الربيع أيضاً أنه لا ينام عن الاحتيال لقتالك واغتيالك ، مهما يطل أمد ذلك ، وأنه أرسل من خلفك مائة فارس ليقتلوك ، فلقيهم لقيط بن زرارة ، وقتل كثيراً منهم وأسر الباقين ، وأنه لا يزال فى هم وحزن من أجلهم .

أطلع عنترة أخويه شيبوباً وجريراً على هذه المكيدة ، واتفقوا على أن يخرجوا إلى غدير ذات الأرصاد إذا ما طلب عمه مالك ذلك منه .

وذات ليلة جاء عمرو بن مالك إلى عنترة وقال :

لقد طال انتظارك الزفاف يابن العم ، وإن أبى ليتحرق قلبه شفقة عليك ، ويود أن يتم الزفاف على عجل ، فى هذه الآونة الهادئة الهانئة ، وهو يدعوك غداً إلى أن تذهب إليه عند غدير ذات الأرصاد ، للتحدث معك فى شأنه ، وما ينبغى أن تفعلوه ليلته .

فقال عنترة :

سمعاً وطاعة يابن العم ؛ ثم أخبر أخويه أن بكرة الغد موعد الخروج إلى الغدير .

وفى الصباح لبس عنترة درعاً مضاعفة النسج أخفاها تحت ثياب من الحرير الأصفر ، وركب جواده ، متقلداً سيفه ورمحه ، وركب أخواه معه ، وساروا إلى الغدير ، فألفى عمه ينتظره ، وقد أعد له



عنترة يرى الغدر كامناً فى نظرات عمه وابن عمه ، وشيبوب وجرير ممسكاً جواد عنترة

طعاماً وشراباً ؛ فتلقاه بمظاهر البشر والبهجة ، وأبدى عبيده من الفرح بقدومه والحفاوة به ما يحمله على الثقة بعمه والاطمئنان إليه ؛ ولكن عنترة جلس وهو لا ينفك يختلس النظرات إلى العبيد ، ليقرأ فى عيونهم ووجوههم ما تخفيه صدورهم ، فرأى الغدر كامناً فى نظراتهم ، وأيقن صدق ما أخبرته خميسة به ، فكان منهم ومن عمه وابنه على حذر عظيم .

أما شيبوب فلم يقر له قرار ، وكان يدور بسيفه هنا وهناك ، ويرقب ماحوله ، مرهفاً حسه نحو الوهاد والتلال وأفواه السبل ، حارساً أخاه ممن حوله .

وانقضى النهار إلا أقله ، وهم يأكلون ويشربون ويتحدثون ، ولكن مالكاً وابنه وعبيده فى قلق عظيم ، إذ يخشون أن يخلف الربيع موعده ، فتبطل المكيدة ، ويعود عنترة سالماً ، وكان شيبوب قد سئم تلك النظرات الخائنة التى تتجاوبها أعين مالك وابنه وعبيده ، فصاح فى أخيه :

قم من بين هؤلاء الخونة ، وخذ حذرك من عمك وابنه .

فهب عنترة قائماً ، وهمّ بجواده أن يركبه ؛ وكان الربيع وحذيفة وجنودهما قد بانوا مقبلين ، صائحين على عنترة بالويل والثبور .

فقال عمه مالك لابنه عمرو :

اضربه بسيفك ، أو اطعنه برمحك ، فلا منجاة له اليوم من الموت .

فانتضى عمرو سيفه ، وضربه ضربة لم يعبأ بها عنترة ، لأنها نزلت على درعه التى تحت ثيابه ، وخف بجواده إلى جيش الربيع القادم ، وتلقاهم عنترة بضرب أطاح منهم الرءوس ، ومزق الصدور ، وبقر البطون، وملأ جوانب الغدير جثثاً كالرميم ، وأصاب حذيفة بن بدر بضربة فى ظهره أسقطته على الأرض مغشيًّا عليه ، فأسرع إليه أخوه حمل وحمله على جواده وفر به لا يلوى على شىء ، ولم يأت الليل حتى كان عنترة قد أفنى كثيراً من جنود الربيع وحذيفة ، وأرغم بقيتهم على الفرار ، فارتدوا إلى الديار خائبين .

وعاد عنترة إلى الغدير وهو غاضب على عمه ، عازم على أن ينتقم منه لخيانته وغدره ، ولكنه لم يجد له ولا لعبيده أثراً ، فانقلب إلى الأحياء هو وأخواه فرحين بحفظ الله ونصره .

وكان مالك وابنه عمرو قد رأيا هزيمة الربيع ، فاتفقا على ألا يرجعا إلى الديار خجلا من فعلتهما ، وخوفاً من قارص اللوم والعتاب ؛ وأمر مالك عبيده أن يعودوا حاملين إلى عبلة نبأ هجرهما الأوطان ، وهيامهما على وجوههما فى القفار ، على ألا يعودا إليها ما دام عنترة حيًّا متشبثاً بطلب عبلة ، كما حملوا إليها وصية أبيها أن تلجأ إلى أحد أعمامها ليحميها من عنترة ، فربما استخفه الغضب فدخل عليها — كما يتوهمون — فى غيبة أبيها ، واتخذ منها زوجة من غير رضا أهلها .

٨

استيقظ عنترة فى الصباح ، فخيل إليه أن لقاء عمه عند غدير ذات الأرصاد، وأن ما فعله بالربيع وحذيفة رؤيا منام ، فقال لشيبوب أخيه : رأيت الليلة فى المنام أبشع رؤيا وأشنعها ، وبدأ يقصها على أخيه ، فعاجله أخوه وقال :

يا بن الكرام ! إنها يقظة . وجعل يسرد الحادثة كما هى واضحة فى نفس عنترة ، وأراه سيفه ودرعه وما عليهما من الدماء ، وقال :

والله يا أخى ما كنت أظن أنك تعود سالماً .

فقال عنترة :

وأين عمى ؟

فقال شيبوب : لقد عدنا إليه وإلى ابنه عند غدير ذات الأرصاد ، بعد أن هزمت الربيع وجنوده ، فما وجدناهم .

وكان عمه مالك قد اتفق هو وابنه أن يذهبا إلى النعمان ، ليوغرا صدره على قيس وعنترة ، ويخبراه أنهما احتضنا الحارث بن ظالم ، وقال قيس فيه :

ذلك الذى أخذ بثأر أبى ، فقتل خالد بن جعفر قاتله ، ولن أدع أحداً من البشر يناله بسوء ، وإن كان النعمان نفسه .

رجع عبيد مالك بن قراد من غدير ذات الأرصاد ، فأخبروا عبلة بما أمرهم به أبوها ، فقالت :

ما كان لنا أن نخشى عنترة ، ذلك الفارس النبيل ، الذى يحمى الفضيلة، ويدعو إليها، ويعاقب من يعقها أو ينال منها، ولن أغادر بيتى حتى يعود أبى .

وذهبت خميسة إلى عنترة فنقلت إليه نبأ عمه مالك ، وأنه لن يعود إلى بيته ، حتى تكون من الهالكين .

فقال عنترة :

ما خسرت الديار ببعده إلا عقوقاً آثماً ، وغدراً باطلاً ، وكيداً جعلناه فى تضليل .

وفى اليوم الثانى زار عنترة فى بيته الحارث بن ظالم ، وعروة بن الورد ، فسألاه عن أمسه ، وفيمَ أمضاه ؟ فأخبرهما ما كان من عمه ومكيدته ، وانتصاره عليه ، وعلى حلفائه وأنصاره ؛ وما اختاره لنفسه من هجرة الأوطان ، والهيام على وجهه ؛ ثم التفت إلى الحارث وقال :

ويبدو لى أنه قصد النعمان ليوغر صدره علينا ، بسبب حمايتنا لك ، ولكنه سعى باطل ، وعمل خاسر ، فلن يستطيع النعمان ، وغير النعمان

أن ينالوك بما تكره ما دمت حيًّا. . . ثم قال :

أما عبلة فمن سعى إلى شعرة واحدة من ذوائبها فقد سعى إلى آخرته ، وأسرع إلى الخروج من دنياه ، وأما عمى فلا بأس عندى أن أبحث عنه وأسترضيه ، ولا أحاسبه على ما قدم لى من مكيدة يبغى بها هلاكى وقتلى بسيوف أعدائى وحسادى .

وبينما هم جالسون إذ جاءهم رسول قيس يدعو عنترة إليه ، من أجل شكايةمن حذيفة، بعث بها إلىقيس عبداً من عبيده. فاستأذن وذهب لساعته إليه، ولمادخل عليه حياه وأجلسه ، وحياه الحاضرون ، ثم قال قيس لعنترة :

بعث إلينا حذيفة عبداً من عبيده فقال على لسان سيده :

إن عنترة لقينى والربيع بن زياد ورجاله عند غدير ذات الأرصاد ، وكنا قادمين لتهنئتك ، والاعتذار إليك عن تقصيرنا وإبطائنا فى القيام بواجب التهنئة ، بسبب هلاك سرية لنا كانت فى بلاد اليمن ، ولم يعد إلا قليل منها ، فلعبت برأس عنترة سورة الخمر ، وقتل رجالنا ، وشرد بقيتهم فى القفار ، وكانوا مائة فارس ، وأصابنى بضربة فى ظهرى ، لا أزال أقاسى آلامها ، فإن كان أيها الملك ما فعله عنترة بنا بإذن منك فأخبرنا ، حتى نقطع ما بيننا وبينك من صلة ، ونرحل من جوارك ، وإلا فاطرده من الديار ، حتى يكون ذلك منك علامة سخط على ما فعله ، ودليل حرص على دوام ما بيننا من مودة .

فابتسم عنترة ابتسامة ساخرة ، ثم التفت إلى الملك قيس وقال :

يا مولاى ! ورب الكعبة إن هذا الحديث إفك وبهتان ، وما أتى الربيع وحذيفة فى مائة فارس إلى غدير ذات الأرصاد إلا لمعونة عمى مالك فى قتلى وهلاكى . ثم قص عليه القصة من أولها إلى آخرها ، وقال :

وشاهدى على صدقى هرب عمى وابنه مخافة الخزى والفضيحة ؛ وأما قوله : إن سريته فى اليمن هلكت رجالها إلا قليلا منهم فهو صادق فى ذلك ، لأنه علم بمسيرى لخلاص الهطال ابن أختى فبعث من خانى مائة فارس ، يغتالوننى فى طريقى ، فلقيهم لقيط بن زرارة ، وفعل بهم ما فعله من الفتاك والتشريد ، وقد وقع منهم ذلك لى وأنا أخفيه ولا أبديه ، ثم يقولون : إنى معتد أثيم ظالم . والذى خلق وزرق لأرينهم عاقبة ظلمهم هذا .

صدق قيس عنترة ، فقال لرسول حذيفة :

قل لمولاك : إن الرجولة لا تتخذ الكذب سلاحاً ، وإن النفاق لا يدخل الحر الكريم ، وإن شكواه لم تبلغ مبلغ الصدق ، وإن من يشير على قيس بطرد عنترة لا يبغى لقيس إلا شرًّا، فليطهر حذيفة قلبه من النفاق ، وليمحص لسانه من الكذب ، وقوله من الرياء .

ورجع عنترة إلى مضاربه ، ومراجل الهم والحزن تغلى فى صدره ، لغيبة عمه ، ولحزن عبلة على فراق أبيها وأخيها . ولبث خمسة أيام ، وهو

لا يهنأ براحة ، ولا طعام ولا شراب .

وجاءته عبلة وأمها فى بيته ، وشكت أمها إليه وحدتهما ، ووحشة الدار ، لخلوها من مالك زوجها ، وعمرو ابنها ، وتوسلت إليه أن يقتفى أثرهما حيث يكونان ، ويحضرهما إلى أهليهما وبيتهما ، فقال عنترة :

لقد نفد صبرى مع مالك عمى وابنه عمرو ، وكم أغضيت عن هفواتهما الآثمة ، وكم أنقذتهما من مزالق خطيرة ، ولولا سيفى هذا لكانا اليوم ترابا ؛ ثم قص عليهما حادثة الغدير ، فقالت عبلة :

ولكنه أبى ، وأنت تحبنى ، فلتحتمل فى سبيل رضاى كل شىء ، وما عليك الآن إلا أن تلبى رجاء أمى ، وتأتينا بأبى وأخى .

اهتز عنترة هزة الغرام والإعجاب وقال :

ومتى آثرت رغبتى على رغبتك ؟ ! إن عنترة لسعيد أن يلبى رجاء لعبلة ، مادام يضفى عليها راحة وسروراً ، وإن كان ماضى عمى لا يبشر بمستقبل تبدو فيه طهارة قلبه ، وصفاء ضميره .

فقالت عبلة :

ألا تعلم أنه منك بمنزلة أبيك ، وإذا ما شذ الوالد عن فطرته فعلى ولده أن يصاحبه فى الدنيا معروفاً ، وذلك ما عهدناه فيك ، ونشأت نفسك عليه !

فقال عنترة :

ويزيدنى إقداماً على تنفيذ رجائك أننى ألبى داعى قلبى فى إرضائك .

وقالت عبلة :

كتبت لك السلامة والتوفيق فيما عزمت .

وقالت أم عبلة :

ولن أنسى فضلك هذا ، وجزاء ما تسبغه علينا من خيرك ونعمتك فإنى أعدك وعد الصدق أن أزف إليك عبلة ، مهما يكن ما ألاقيه فى سبيلك .

قال عنترة وأحضر والده ، وزخمة الجواد عمه ، والحارث بن ظالم ، وعروة بن الورد ؛ فألقى إليهم ما دار من الحديث بينه وبين عبلة وأمها ، وأخبرهم أنه عازم أن يرحل فى منتصف الليل ، باحثاً عن عمه وابن عمه ، ووصاهم بعبلة خيراً ، وجعلها وديعة فى أيديهم ، حتى لا ينالها ضيم أو أذى ، وحتى لا يمكنوا أباها — إذا قدرت له العودة ، وهو لا يزال يبحث عنه — من تزويجها بأحد غيره ، وإن لقيكم فى ذلك ما يعجزكم فليرحل بها أبو هانئ إلى بنى شيبان ، عند أخى بسطام حتى أعود ، فإن بينى وبين بسطام هذا عهداً لا ينقض ، لكرمه وكرم أصله ؛ وأما أنت يا أبى فخذها من الغد إلى بيتك .

فقالوا له :

لتطمئن قلباً عليها .

وقال أبوه :

كن مطمئناً على عبلة، ولكنى لن أدعك تسير وحدك ، ولا بد أن يصحبك جماعة من الفرسان الأشداء .

فقال عنترة : ولا يمكن أن تغادر الحى أنت وعمى زخمة الجواد ، لأنكما عمادى الذى أعتمد عليه فى المحافظة على عبلة .

فقال الحارث :

حينئذ لا بد لى من مصاحبتك .

وقال عروة :

وأنا معكما، فإنه لا تهنأ لى حياة إلا إذا كنت مع عنترة .

فشكرهم وتأهبوا للمسير .

انشقت الديار عن عنترة ، والحارث ، وعروة ، وشيبوب ، وركبوا متن السبل فى القفار والبيد ؛ وبعد قليل من المسير سأل شيبوب أخاه عن مقصده ، فقال :

أريد بنى عامر من طريق لا يعبره أحد . فجعل شيبوب يشق بهم سبلا لا عهد لها بإنسان اجتازها أو وطئ ثراها، حتى كانوا على مقربة من مقصدهم، وهناك خبأهم شيبوب فى مكمن يعرفه ، وأمرهم ألا يبرحوه حتى يأتيهم بأخبار بنى عامر؛ ثم تنكر فى زى الصعاليك وقصد القوم فى أحيائهم وبيوتهم، فلم يسر إلا قليلا حتى قابله بشير عبد رابح بن

الصباح سيد بنى جبهان، وكان ذاهباً إلى الأخوص بن جعفر ، وغشم ابن مالك، يدعوهما إلى مشاهدة مقتل مالك بن قراد، وعمرو ابنه ، فعرف منه شيبوب مقصده، وأن مالكاً وابنه عند سيده، يذيقهما ألواناً من العذاب إلى أن يقتلهما، فأخذه شيبوب قسراً ، وطلع على عنترة به، وعرفه به و بمقصده الذى كان سائراً إليه ، فسأله عنترة :

أين تنزلون أيها العبد ؟

فقال بشير :

فى أرض العنز .

فقال عنترة :

وكيف أسرتم هذين الرجلين العبسيين ؟

فقال بشير :

كان سيدى عائداً من وليمة هو وزوجته دعد العامرية ، ويصحبهما فارس عشيرتنا وليثها عبد مناة ، فلما قربوا من الديار ، عثروا بهما ، فقال عمرو لأبيه :

تلك عروس سائرة إلى بعلها ، أو امرأة تنشد أهلها ، وليس معها إلا فارسان وثلاثة عبيد ، وبودى أن أغير عليهم، وأسبى ربة هذا الهودج بما عليها من حلل ، وما لها من مال ، ثم نسير بها إلى أن نصل إلى الملك النعمان .

فقال أبوه :

يا ولدى ؛ إننا فى شغل شاغل بهجرتنا من أوطاننا ، فلا تثقل علينا بمعاداة العرب والتصدى لنسائهم .

فقال عمرو :

لا بد من ذلك .

وصاح عمرو بسيدى : أن خلوا الهودج وما معكم من الأموال ، وانشدوا لأنفسكم من الموت مفرًّا ؛ فكاد سيدى يتميز من الغيظ ، واستل سيفه ، وحمل عليه حملة ، اشتبكا بعدها فى معركة حامية اشترك فيها مالك لمعاونة ابنه عمرو ، وقد أبلى مالك وابنه بلاء حسناً ينم عن مكانة رهيبة فى البطولة إلا أن الأمر انتهى بأسرهما ، وسوقهما إلى حيث يعذبان الآن ، حتى يقتلهما سيدى على مشهد من الأحوص ، وغشم ، اللذين أوفدنى إليهما ، فاعترضنى هذا الفارس — يشير إلى شيبوب — وأحضرنى إليكم .

فقال عنترة :

وكيف يقتلهما سيدك لأنهما اعترضا سبيله ؟ ! أما كان يكفيه أنه أذلهما بقهرهما وأسرهما ؟

فقال بشير :

إن له عندهما ثأراً قديماً ، فقد قتلا أخاه فى موقعة بنى فزارة ، وقد

بعث رسولا غيرى ، ليحضر لقيط بن زرارة ، ليشهد هو أيضاً مقتلهما وصلبهما .

ثارت فى رأس الحارث بن ظالم ثورة فطرته ، وطوعت له نفسه التى تستمرئ الشر لأتفه سبب أن يقتله ، فسل سيفه ، وضرب بشيراً ضربة أطاحت رأسه ، ثم سلك بهم شيبوب الطريق إلى أرض العنز ، حتى يدركوهما قبل أن يمزقا :

وقال الحارث وهو فى ثورة من شره .

والله يا عنترة لو جرى علىّ من أبى عشر معشار ما جرى عليك من عمك لقتلته ، وما احتملته .

فقال عنترة :

لن يكون ذلك منى أبداً ، ولو لقيت من عمى أضعاف ما لقيت ؛ فهو أبى ، وما كان لابن أن تمتد يده إلى أبيه بضر أو أذى ، وما كان استسلام الذبيح إسماعيل لأبيه إلا بياناً للناس ، بما ينبغى أن يحمله الولد لأبيه من طاعة خالصة ، واستسلام كريم ، وقد أخذت نفسى ألا أقف من والدى وأهلى موقف عقوق أو كراهية .

فقال الحارث :

العدوان إثم ، ولا يبيحه أن يكون صادراً من أب أو أم .

فقال عنترة :

وعلى الإبن أن يحمى نفسه من ظلمهما بالمعروف والحسنى ، وأجل المرء له وقت معلوم ، فإذا جاء لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم . . .

وكانوا قد قربوا من أرض العنز ، فقال شيبوب :

تمكثون فى هذا المكان فى معزل عن الناس حتى آتيكم بأخبار القوم وما هم عليه من قوة وبأس .

فقال عنترة :

إنى أحب أن أرى معك عمى وابنه فى محبسهما وعذابهما ، فقال شيبوب :

على أن تتنكر معى فى زى العبيد حتى نأمن العطب .

فقال عنترة :

لا ضير علىّ من ذلك .

ولبس لباس الصعاليك ، وحمل كل منهما حزمة من الحطب ، ودخلا الأحياء ، حتى كانا فى مضارب رابح بن الصباح ، ومالك وابنه على مرأى منهما ؛ فوضعا الحطب وجلسا كأنهما يستريحان من تعب . فألفياهما على حال من الذلة تشق المرائر وتثير الشجون ، وخرج حينئذ رابح من بيته وعبيده من حوله يتحدث إليهم فى بعض شئونه ، فقال أحدهم :

رأيت اليوم عجباً ؛ فبينما أنا فى الوادى والإبل بين يدى تسعى إذ رأيت فارساً أسود يطارد غزالة وهى تجرى فى سرعة الريح أمامه ، وإذا برجل عدا على قدميه أمامه فسبق جواده ، وحينما أدرك الغزالة أمسكها وأحضرها بين يديه ، فقبلها الفارس بين عينيها ، وأخذ يناجيها بكلام يدل على أنه متيم واله .

فقال رابح : لئن صح ظنى فهذا أسود بنى عبس ، وما إخاله إلا آتياً ليخلص هذين الأسيرين ؛ ولكن خاب فأله فلن يلقى منا إلا قتلا أو أسرا .

وكان هذا الحديث على مسمع من عنترة وأخيه وعمه وابنه ؛ فأسر مالك لعمرو ابنه :

لئن أنقذنا هذه المرة على يدى عنترة فلن أضمر له شرًّا ، ولن أسمع فيه وشاية أو فرية .

ثم قال رابح :

لئن أبطأ علينا بشير الذى بعثناه إلى الأخوص وغشم ، ونازح الذى بعثناه إلى لقيط بن زرارة فلن أنتظرهم بعد هذه الليلة ، وموعد قتل هذين الأسيرين الصبح .

ثم رجع إلى بيته فمر بمالك وابنه وأشبعهما ضرباً بالسوط قائلا :

لعن الله قبيلة أظلتكم سماؤها وأطعمتكم خيرها ، لأنه لا مروءة

عندكم ولا وفاء ، وتدينون بالظلم والغدر والرياء ، ولا تستحيون من الله والناس ، فأنتم من أعيان القبيلة وكبرائها ، وقد فضل الله عليكم عبداً أسود من عبيدها ، فنجاكم غير مرة من موت واقع بكم ، ولا تزالون عاكفين على كراهيته وحسده ، ونصب الحبائل لاغتياله ، ولقد بلغنى أنه أعطاك مهراً لابنتك لم يدفعه عربى قبله ، ولن يدفعه عربى بعده ، وعاهدته على أن تزوجه ، ولكنه لم ير منك إلا سعياً ماكراً فى قتله ، وربما أتانى عبدكم هذا عنترة لينجيكما من هذه الورطة ولكنى سأكسر صلبه وأحز عنقه ، لأنه تجرأ وأتانى ، ولأنه دأب على فعل الصنيعة لمن لا عهد له ولا ذمة .

ثم وصّى العبيد بحراستهم ، وغادرهم إلى مضجعه لينام .

قال شيبوب لأخيه :

ماذا عزمت أن تفعله بعد أن سمعت من رابح ما سمعت .

فقال عنترة :

متى غرق الحى فى نومه ، واطمأن الحرس فى مضاجعهم ، وأفقدهم النوم حسهم ، ذبحتهم بسيفى هذا ، ثم عمدت أنت فقطعت بخنجرك حبائل عمى وابنه ، وفررت بهما إلى حيث الحارث وعروة . أما أنا فسأضع هذا الحطب على النار التى أمام بيت رابح ، فإذا ما خرج إليها ليتبين سبب اشتعالها ضربت عنقه بسيفى هذا ،

وأسرعت إليك لأدركك .

فقال شيبوب :

ولكن اشتعال النار على هذه الحال المفزعة سيوقظ الحى ويعرف ما فعلنا فتدركنا الخيل ولا نستطيع هرباً .

فقال عنترة :

إذا أدركتنا فرسانهم فانج أنت بعمى وابنه ، ودعنى أحصدهم حصداً ، حتى يرتدوا على أعقابهم أذلاء خاسرين ، وإن كانوا لا يحصون عدا .

وكذلك فعل عنترة وأخوه وأخذ شيبوب معه جوادين وسلاحاً لمالك وابنه ولحق بهم عنترة وهم سائرون فلقيهم الحارث وعروة ، وكانا قد أتيا ليطمئنا على شيبوب وعنترة ، وأشار عليهم عنترة أن يجدوا فى المسير فى ذلك الوقت الذى ظن أن القوم مشغولون بقتل سيدهم رابح ، فدأبوا فى عودتهم مسرعين ، والحارث يقول لمالك :

كيف تبغض ابن أخيك هذا ، الذى وهب لك حياتك ألف مرة ؟ ! أليس ذلك الجحود وكفران النعمة ؟ ! فقال مالك : والله إنى لأكاد أذوب خجلا ، ولقد كان على قلبى مغاليق ، وعلى عينى غشاوة من ناحية عنترة ابن أخى . فكنت أستقبح منه كل جميل ، ولذلك وقعت فى هذا الضلال الأثيم ، والآن أحمد الله الذى صرف عنى السوء وجعلنى

من التائبين المخلصين، الذين يعرفون نعمة ابن أخى ولا أنكرها ، ثم قال لعنترة :

لقد أوقعنى ماضى نفاقى فى مواطن التهلكة ، ولم تكن نجاتى إلا على يديك ، ولن تجدنى من الآن إلا أباً رحيماً ، ولن تكون عبلة إلا لك من دون الناس ، فقر عينا بأبيك وزوجك .

فقال عنترة :

لئن فعل الوالد بولده أضعاف ما فعلت بى ما كان له أن يعدو القول الكريم اللين وخفض الجناح فى معاملته .

وساروا يقطعون الأرض متجهين إلى ديارهم، وبينما هم سائرون إذ أدركهم جيش بنى جبهان وفيهم عبد مناة ،وكان قد أذاعت النساء فى بنى جبهان ما وقع لرابح بن الصباح فركبوا خيلهم ، وأسرعوا من خلفهم ، حتى أدركوهم فى الصباح وفيهم عبد مناة ، فوقف عنترة إذ ذاك وقال لعروة :

يا أبا الأبيض ، خذ عمى وولده والحارث ، واستمروا على ما أنتم عليه من المسير ، وأنا أرد عنكم الأعداء ، وسأكون معكم عند المساء .

فقال عروة :

لن نسير ونترك من ورائنا شاغلا يعكر اطمئناننا ، بل نلقاهم جميعاً حتى نقضى عليهم .

ووافقه الحارث على قوله ، وكان عمه قد أبصر الخيل متلاحقة فخشى ألا يسلم منها هذه المرة ، فقال :

يا أبا الفوارس ! أنت اليوم عدتنا وعتادنا ، ومعصمنا وملاذنا ، وكم دفعتَ عنا من قبل الشدائد والنوائب ، فدونك اليوم وهؤلاء الأعداء .

وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم غبار من ناحية بنى دارم ، وبان من تحته مائة فارس ، يتقدمهم لقيط بن زرارة ؛ وكان قد أتى يشتفى من مالك بن قراد وابنه عمرو ، ولما رآه بنو جبهان عرفوه ، ومالوا إليه منادين إياه ، فأخبروه ما فعله عنترة ، وما جرى لرابح بن الصباح ، وأن عنترة خلص عمه مالكاً وابنه عمرو .

فقال لقيط :

ليس ذلك بغريب ، فإن عنترة وأخاه شيبوباً كثيرا الاحتيال ، جسوران على لقاء الأهوال ، وقد احتالا بمثل ذلك وخلصا الهطال من يدى ، وأهلكا رجالى وأبطالى ، ولكن ليس لهم اليوم مفر من أيدينا ، ولا بد أن نستوفى منهم ديوننا ، فلنحمل جميعاً عليهم ، ولا تغرنكم قلتهم ، فينهبونا برماحهم وسيوفهم ، وقد يكون فيهم الحارث بن ظالم .

اشتد الأمر على مالك بن قراد وابنه عمرو ، فجعلا يتمسحان فى عنترة ، فيمدحانه تارة ويظهران له محبتهما وإخلاصهما تارة أخرى ،

وعنترة فى فرح من هذه الحال ، فقال لعروة :

يا أبا الأبيض ، أيهما أحب إليك ، الميمنة أم الميسرة ؟ أم تلقى أنت لقيطاً وحدك ، وأنا أرد الخيل عنك ؟

فقال الحارث :

وهل أقف أنا بلا عمل ولا قتال ؟ ! أنت تعلم أن لقيطاً خصمى وبينى وبينه عداوة ، وهو الذى سلمنى إلى الملك النعمان ، ولا بد لى أن ألقاه ، فاذهب أنت وعمك وولده وعروة إلى من تريدون ، وقاتلوا من تشتهون ، واتركوا لقيطاً لى .

ولم ينتظر الحارث إجابة ، وهمز جواده فانفلت به إلى لقيط بن زرارة ، وبدأت المعركة ، وخاض غمارها فى الحال عنترة ومن معه ، بهمة تتضاءل أمامها الهمم وإن كثرت وجعلت تخبط المنايا فيهم خبط عشواء ، حتى دب الرعب فى قلوب الأعداء ، ففروا خاسرين ، وانكشفت الغمة عن مالك بهذا النصر المبين ، فجعل يثنى على عنترة ويشكره ، ويعده ويمنيه بزواج ابنته عبلة فقال عروة :

دع عنك هذا الثناء ، وتلك الدعوة البراقة ، فليس إلى ابن أخيك فيها حاجة ، وليكن شكرك عملا تؤديه بأن تزف إليه ابنتك عقب وصولك إلى أهلك وبيتك .

فقال مالك :

ورب البيت لو أننى فى بيتى الآن لزففتها إليه فى الحال .

فقال عنترة :

خل عنك يا عروة ، عمى يفعل ما يشاء ، فأنا ابنه أحسن أم أساء ؛ وجدوا فى السير وعنترة يتمنى أن يصلوا إلى الديار فى أقرب من طرفة العين ، ليرى مبلغ وعد عمه من الصدق ، راجياً أن يكون وعد الحق ، وقول الإخلاص والوفاء .

وكانوا كلما مروا بحلة نهبوا منها ما يشاءون من الأموال حتى قاربوا أرض الشربة والعلم السعدى ، فسمعوا منادياً ينادى وهو مقبل عليهم :

يا للعرب ! جاءنا التوفيق من أقرب طريق ! هلموا ! هلموا !

فسأله عنترة :

أين تذهب ؟ ! !

فقال :

إليكم .

فقال عنترة :

وما شأنك بنا ؟ !

فقال :

سأل عنك قيس بن زهير ، فقيل إنك فى طلب عمك وابنه ، فشغلته غيبتك وبعث لاقتفاء أثرك جماعة فى أثر جماعة وكان يعود كل

منها على غير جدوى ، وقد كلفنى أمس أن أخرج للتنقيب عنك ، ولا أرجع إلا بك ، أو بمعرفة مكانك ، فكتب الله لى التوفيق ، والتقيت بكم من أقرب طريق .

فسأله عنترة :

وما وراءك من الأخبار ؟

فقال :

الديار مقبلة على الفناء والبوار ، وذلك أن حذيفة بن بدر ، لا يزال فى حقد عليك ، وعلى قيس وإخوته ، ولا يزال يطيع إغواء الربيع بن زياد الذى يقيم عنده ، وقد توترت العلاقة الآن بين قيس وحذيفة والناس يتوقعون من أجل ذلك حرباً طاحنة .

وذلك أن الملك قيساً بلغه أن رجلا من بنى رباح التميميين عنده جواد يدعى داحسا ، فأرسل إليه من يبتاعه له ، لأنه بلغ من حسن الخلقة وسرعة العدو ما لم يبلغه جواد فى جزيرة العرب ، فأبى صاحبه وقال :

كيف يطمع قيس فى مال الناس ، ما داموا فى حاجة إليه ، أغره ملكه أم استعرت فى صدره الأنانية وحب الذات فسولت له نفسه أن يعتدى على حق غيره ؟ ! بلغ صاحبك أن الناس سواء ، فى الاستمتاع بما يملكون وأن لهم حق الحرية فى أموالهم ، ما دام تصرفهم لا يضر غيرهم .

فلما جاءه الرسول بما قاله صاحب الجواد ثارت ثائرته ، وزاد تشبثاً بالجواد ، فذهب إليه فى فرسان أشداد ، وأغار عليهم إغارة مزقت شملهم ، وغنم منهم أموالا جمة ، وأسر كثيرين من رجالهم ونسائهم ، وكان صاحب الجواد غائباً ، وهم عبده أن يعدو بداحس هرباً ولكن قيساً استوقفه ومنحه الأمان ، وطلب منه الجواد بما يشاء من الثمن ؛ فقال :

ثمنه أن تخلى سبيل الأسرى ، وتترك ما غنمت من الأموال والنعم .

فرضى قيس ، وأخذ الجواد داحسا ، وعاد إلى أحيائه .

ولما بلغ بنى فزارة أمر هذا الجواد حسدوه عليه ، وأصر حذيفة والربيع ابن زياد على قتله حتى يحرموه منه ولكن الربيع اعتاد المكر والاحتيال ، فأشار على حذيفة أن يؤجل قتل الجواد إلى حين حتى يفتر شغف قيس به ، وكان حذيفة قد أقام وليمة ، حضرها قراوش بن هانئ ابن عم الملك قيس فجرى فى الجلسة ذكر الجياد ، وتفضيل بعضها على بعض ، وقال قراوش :

إن لدى ابن عمى قيس جواداً ليس كمثله جواد فى جزيرة العرب ، فاعترضه حذيفة مسفهاً قوله ، ومفضلا جياده التى منها فرسه الغبراء ، ثم قال :

ولا داعى إلى هذا الجدال الذى لا يغنى شيئاً ، ولتدخل داحساً

فى حلبة السباق على أن تعطينى عشر نوق إن سبقت ، وأمنحك مثلها إن سُبقت .

فقال قراوش :

ذلك لك . وتعاهدا على أن يكون السباق فى يوم معين .

ولما رجع قراوش أخبر قيساً بما كان بينه وبين حذيفة ، فغضب وقال : لقد أيقظت فتنة نائمة بيننا وبين فزارة . ألا تعلم أن حذيفة يحمل البغض لنا فى صدره ، وأن الربيع بن زياد أضله الحسد ، وأنه لا يفتأ يغريه بقتالنا عسى أن يكون فى ذلك هلاك حاميتكم عنترة بن شداد ؟

فقال قراوش :

لقد قلت الحق وبان لى الآن خطأ ما فعلت ، ولكنه قد كان ، ولا حيلة لى فى دفعه .

فقال قيس :

دع عنك هذا وعسى أن أوفق إلى نقض ما تعاهدتما عليه .

ذهب قيس إلى حذيفة ، ولكنه لم يجد استقبالا ينم عن خالص الولاء ، فجلس بين حذيفة والربيع وأعيان بنى فزارة وهم يتغامزون ويتضاحكون وهو يكظم غيظه إسكاتاً للشر ، وإصلاحاً لذات البين ، ثم قال حذيفة :

لعل الخير الذى جاء بك .

فقال قيس :

خير كله . فقد جئت لأعفى قراوشا ابن عمى مما تعاهدتما عليه .

فقال حذيفة :

لن أنقض شيئاً أبرمته ، وإذا لم يرد ابن عمك السباق فليحضر إلينا النوق ولى الخيار بعد ذلك : إن شئت أخذتها ، وإن شئت رددتها عليه تفضلا حتى لا يطاول بعد ذلك من لا يقدر عليه .

فقال قيس :

فلتكن المسابقة بينى وبينك على عشرين ناقة بدلا من عشر .

فقال حذيفة :

بل ثلاثين .

وقال قيس : بل أربعين .

وجعل عدد النوق يتصاعد حتى وصل مائة ناقة ، ثم قال قيس : وتكون المسافة مائة غلوة ، والرامى إياس بن منصور ، وأن يكون السباق بعد أربعين يوماً .

فقال حذيفة :

رضيت بذلك .

ثم رجع قيس وأمر بتضمير الجياد استعداداً للسباق ، والناس بعد

ذلك يخشون أن يكون هذا السباق مبعث حرب بين عبس وفزارة ، فاغتاظ عنترة لذلك وقال للعبد :

هيا بنا إلى الديار فذلك أمر علينا يسير .

٩

استبشر الناس بقدوم عنترة وفرحوا ، إذ كانوا يخشون أن تقوم الحرب وهو غائب يبحث عن عمه مالك وابنه ، ثم ذهب إلى قيس ، فأشرق صدره بنور قدومه ، وسأله عن غيبته ، فقص عليه ما كان من عمه ، وكيف أحضره ؛ ثم أخبره قيس بما كان من حذيفة ، وأن إصراره على السباق لا يبغي به إلا شرًّا .

فقال عنترة :

لا تضق ذرعاً بحذيفة ولا بسباقه ، فإن أنصفك وإلا فسوف ترى ما يحل به ، ولأبدلنهم من بعد أمنهم وضحكهم خوفاً وبكاء .

اطمأن قيس ، وأصبح لا يخشى منكراً من القول والعمل يأتيه من بنى فزارة ، وفى ذلك الحين ، جاءه سنان بن أبى حارثة مبعوثاً من النعمان فقال :

إن بنى فزارة أخبروا النعمان أنكم أجرتم الحارث ، وجعلتم أنفسكم له

دروعاً وسيوفاً ، لأنه قتل جعفراً قاتل أبيكم ، ويبلغكم أنه أبقى لكم من الحارث وألف مثله معه ، ويرجو أن ترسلوه معى إليه .

فقال قيس :

قضى الأمر الذى جئت فيه ، فقد طوق الحارث أعناقنا بمعروفه ، إذ أخذ بثأر مليكنا ، وفك رقاب أسرانا وهو قادم إلينا ، ولا ينبغى أن تكون المتجردة أوفى بإطلاقه لأبيها منا ، وما بعثته إلينا إلا لأنها تعلم أنا لا نسلمه لأحد يريد به الضر ، حتى نسلم أرواحنا .

وفى تلك الأثناء دخل عنترة ، وكان قد علم بالرسول وبما جاء فيه ؛ فقال فى غضب وغلظة :

بلغ صاحبك النعمان أنى أجرت الحارث ، فليسكت ، وإلا فلن يلوم إلا نفسه ؛ فقم لساعتك ، ولا تنبس ببنت شفة .

فخرج الرسول يجرجر أذيال ذله وخيبته واحتقاره ، وصدره يغلى غيظاً من قسوة عنترة وغلظته .

عرف بنو فزارة أن عنترة رجع من غيبته ، وأن قيساً أصر على أن يتم أمر السباق لجواده ، فقال حذيفة لأخيه حمل :

لقد منينا بذلك العبد الأسود عنترة ، الذى كلما دبرنا الكيد لقيس أبطله ، وجعله شؤماً علينا ، وقد حضر من غيبته ، فجعل قيساً يقدم على السباق ، وهو رابط الجأش، قوى الجنان ، فأشر علىّ بما يمكننى

من اغتيال هذا العبد .

فقال حمل :

لا تطمع فى أن تنال منه وإن كان حولك جيش من الجن ، وأرى أن تتنازل عن هذا السباق ، محافظة على قومك من سوء مغبته ، ودع الظهور على قيس إلى فرصة أخرى .

فقال حذيفة :

وكيف أتنازل بعد إصرارى عليه ؟

فقال حمل :

سأذهب إلى قيس ، وأزور له الكلام ، حتى أجعله يأتى إليك ، ويرجو منك التنازل عن السباق ، وحينئذ تجيبه إلى رجائه متفضلا ، ومتأثراً بهذا الإلحاف الذى ينبغى أن تكون له قيمته .

فنزل حذيفة على رأى أخيه .

وذهب حمل إلى قيس لزيارته ، وجرى بينهما الحديث أشكالاً وألواناً ، ثم قال حمل لقيس :

ينبغى للملوك أن تفسح صدورها للرعية ، ولا يثنيهم الإخفاق فى أمر صالح ، عن الدأب على معالجته مرة ومرة ، فربما أتيح لهم من وسائل النجاح ما لم يتح لهم فى المرة السابقة ؛ وأنت تعلم خطورة السباق بينك وبين حذيفة ، وأرى أن تذهب إليه ، وتطلب التنازل عنه ، فإن

أجاب وإلا فقد أعذرت وأرضيت ضميرك ، وعرف الناس أنك لا تلجأ إلى الشدة إلا بعد استيعاب وسائل اللين والمعروف .

هب قيس لساعته ، وأخذ عمه أسيداً معه ، وصحب حمل بن بدر إلى بنى فزارة ، على غير علم بذلك من أحد ، ووجد قيس حذيفة جالساً فى جماعة من أعيان قومه — وفيهم سنان بن حارثة — فسلم وجلس ، والتفت إلى سنان قائلا :

لعلك أصلحت ما بيننا وبين النعمان ، فالرسول بعقله وحكمته .

فقال سنان : وكيف يكون الإصلاح وأنا لم أستطع العودة إليه ، لأنى أخذت على عاتقى ، إحضار الحارث بن ظالم له ، كما وضعه النعمان فى عنقى ، لأن الحارث سرق ابنه من دارى ، فأنا المسئول عن فقده ، وقد كنت أطمع فى إكرامكم لى ، بتسليمى الحارث ، ولكنكم أبيتم ، فأرسلت إلى النعمان من يخبره ، وبقيت أنا فى بنى فزارة ، حتى لا أعرض نفسى للخطر والهلاك ؛ وكان سنان كاذباً فيما قاله ، ولم يذهب إلى بنى فزارة إلا ليستعديهم على بنى عبس ، لينتقم من عنترة ، الذى أغلظ له فى القول وسفهه ، حينما جاء فى طلب الحارث بن ظالم .

وكان قد أرسل إلى النعمان أن يبعث جيشه إلى بنى عبس لينتقم منهم ، ويأخذ الحارث من أيديهم ؛ ولهذا فإن حذيفة أصر على ألا يتنازل عن السباق ، لأن الفرصة أتيحت له ، وعزم على أن يشعلها حرباً بينه

من اغتيال هذا العبد .

فقال حمل :

لا تطمع فى أن تنال منه وإن كان حولك جيش من الجن ، وأرى أن تتنازل عن هذا السباق ، محافظة على قومك من سوء مغبته ، ودع الظهور على قيس إلى فرصة أخرى .

فقال حذيفة :

وكيف أتنازل بعد إصرارى عليه ؟

فقال حمل :

سأذهب إلى قيس ، وأزور له الكلام ، حتى أجعله يأتى إليك ، ويرجو منك التنازل عن السباق ، وحينئذ تجيبه إلى رجائه متفضلا ، ومتأثراً بهذا الإلحاف الذى ينبغى أن تكون له قيمته .

فنزل حذيفة على رأى أخيه .

وذهب حمل إلى قيس لزيارته ، وجرى بينهما الحديث أشكالاً وألواناً ، ثم قال حمل لقيس :

ينبغى للملوك أن تفسح صدورها للرعية ، ولا يثنيها الإخفاق فى أمر صالح ، عن الدأب على معالجته مرة ومرة ، فربما أتيح لهم من وسائل النجاح ما لم يتح لهم فى المرة السابقة ؛ وأنت تعلم خطورة السباق بينك وبين حذيفة ، وأرى أن تذهب إليه ، وتطلب التنازل عنه ، فإن

أجاب وإلا فقد أعذرت وأرضيت ضميرك ، وعرف الناس أنك لا تلجأ إلى الشدة إلا بعد استيعاب وسائل اللين والمعروف .

هب قيس لساعته ، وأخذ عمه أسيداً معه ، وصحب حمل بن بدر إلى بنى فزارة ، على غير علم بذلك من أحد ، ووجد قيس حذيفة جالساً فى جماعة من أعيان قومه — وفيهم سنان بن حارثة — فسلم وجلس ، والتفت إلى سنان قائلا :

لعلك أصلحت ما بيننا وبين النعمان ، فالرسول بعقله وحكمته .

فقال سنان : وكيف يكون الإصلاح وأنا لم أستطع العودة إليه ، لأنى أخذت على عاتقى ، إحضار الحارث بن ظالم له ، كما وضعه النعمان فى عنق ، لأن الحارث سرق ابنه من دارى ، فأنا المسئول عن فقده ، وقد كنت أطمع فى إكرامكم لى ، بتسليمى الحارث ، ولكنكم أبيتم ، فأرسلت إلى النعمان من يخبره ، وبقيت أنا فى بنى فزارة ، حتى لا أعرض نفسى للخطر والهلاك ؛ وكان سنان كاذباً فيما قاله ، ولم يذهب إلى بنى فزارة إلا ليستعديهم على بنى عبس ، لينتقم من عنترة ، الذى أغلظ له فى القول وسفهه ، حينما جاء فى طلب الحارث بن ظالم .

وكان قد أرسل إلى النعمان أن يبعث جيشه إلى بنى عبس لينتقم منهم ، ويأخذ الحارث من أيديهم ؛ ولهذا فإن حذيفة أصر على ألا يتنازل عن السباق ، لأن الفرصة أتيحت له ، وعزم على أن يشعلها حرباً بينه

وبين قيس ، ليكون له من معونة جيش النعمان ، ما يمكنه من قتل عنترة ، وقهر العبسيين قهراً يرغم أنوفهم ، وتعنو له وجوههم ؛ ولهذا أشار عليه سنان أن يرد قيساً خائباً ، وأن يكون السباق فى موعده ، وهو الوقت الذى يكون قد وصل فيه جيش النعمان .

من أجل ذلك لم يلبث قيس أن جلس وانتهى حديثه مع سنان بن حارثة ، حتى التفت حذيفة إلى أخيه حمل قائلا :

ومن أذن لك أن تذهب إلى قيس وتكلفه الحضور إلينا فى أمر ، لو اجتمعت الجن والإنس على أن أتنازل عنه ما قبلت ولا رضيت ؟

فلم يحر أخوه جواباً ، وعرف قيس كل شىء ، فهم بجواده وركبه ورجع هو وعمه إلى أهله .

عتب قوم قيس عليه ، أن ذهب إلى حذيفة يستجديه الإقالة من السباق ، وما كان له أن يفعل ذلك وهو ملك له قوته وبأسه ، فقال :

ما أردت إلا الإصلاح وحقن الدماء ، وقد كدت أوفق لولا سنان ابن حارثة ، وما علينا بعد هذا إلا الاستعداد للسباق فى موعده .

وجعل العرب حديثهم فى داحس جواد قيس ، والغبراء فرس حذيفة ومصير السباق بينهما ؛ وفى اليوم الموعود ، غص غدير ذات الأرصاد بقبائل العرب ، ليشهدوا السباق بين قيس وحذيفة . وكان قيس قد وصى عنترة أن يعكف فى قبته حتى ينتهى السباق ، وينقل إليه نتيجته ، ولكنه لم

يستطع على البقاء صبراً ، فطلع على جواده والسيف فى يده ، فى الساحة بين الجموع الحاشدة ، وداحس والغبراء على أهبة العدو والانطلاق ، وقال :

أيها العرب الكرام ، لقد عرفتم فضل زهير على عنترة ، وأنه لم يطل به أجله ، حتى أجزيه ببعض صنيعه ، ووفاء بحقه علىّ سأجعله فى قيس ابنه ، فأعز وليه وناصره ، وأكبت عدوه وشانئه ، ولئن بغى حذيفة لأسقينه كأس المنية ، ولأرسلنها حرباً طاحنة ، تجعل بنى فزارة مثلا وعبرة .

اصطفى قيس فارسه ، وعلمه كيف يركب داحساً فرسه ؛ وكان هذا الفارس سابق بن غالب ؛ واختار حذيفة فارسه ، وعلمه كيف يركب الغبراء فرسه ، وكان هذا الفارس مالك بن مغلوب ؛ وتأهب الفارسان للركوب والسباق ، ولكن حذيفة لأمر فى نفسه قال :

لقد مضى من هذا اليوم أكثره ، ويحسن أن نرجئ السباق إلى بكرة الغد .

فأجابه قيس إلى ما طلب ، وقبل أن ينفض القوم وقف شيبوب بينهم قائلا :

أيها العرب لقد شغلكم أمر السباق بين داحس والغبراء ، وأقلق بالكم مصيره ، لما تخشونه من أن يكون مثار فتنة ، ومبعث حرب وعداوة ، وأنا أكفيكم الآن أمره ، بأن تجعلوا السباق بينى عادياً ، وما تختارونه

من جياد بنى فزارة ، على أن يكون لى إن سبقت مائة ناقة ، ولبنى فزارة منى إن سبقت خمسون ناقة . فضحك القوم وقالوا :

ما هذا الحكم الجائر ؟ ! وكيف تكون المائة لقاء خمسين ؟ !

فقال شيبوب : لا تعجبوا ولا تضحكوا ، فالجواد يجرى على أربع وأنا أجرى على اثنتين ، فلا عجب حينئذ أن يكون نصيبه على النصف من نصيبي ، وأن يكون حظى ضعف حظه ؛ فضحك القوم ، وانصرفوا إلى أن تجمعهم ساعة السباق صباح الغد .

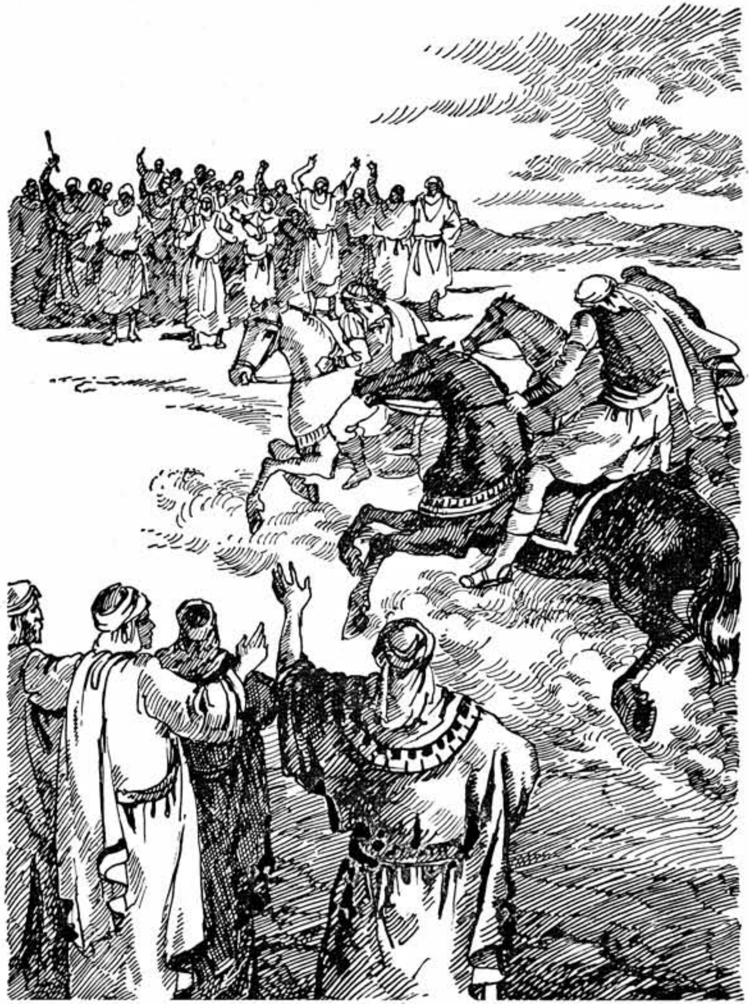
وكانت الحاجة التى فى نفس حذيفة ، أنه بعد أن أوى إلى خيمته ، أحضر عبداً من عبيده يدعى حابساً ، وأمره أن يكمن فى مكان كذا من ساحة السباق ، حتى إذا ما رأى داحساً قد سبق الغبراء ، لطمه على وجهه ، ولواه عن مواصلة عدوه ، ويترك الغبراء تعدو إلى هدفها ، حتى تحوز قصب السبق ، فيكون لنا فخاره ، ونغنم مائة ناقة .

فقال حابس :

وكيف أعرف داحساً ، وأنا لم أره ؟ ! !

فقال حذيفة :

تعرف داحساً من الغبراء بمعرفتك فارسيهما ، وزيادة فى المعرفة : أن تأخذ معك عشرين حصاة ، فإذا طلعت الشمس . فألقها على الأرض أربعاً أربعاً ، وافعل ذلك خمس مرات متوالية ، فإن أشرف عليك



سباق داحس والغبراء

غبار وفى يدك بقية من الحصى ، فاعلم أنه لداحس ، فعاجله بلطمة على وجهه تعوقه عن مواصلة عدوه .

ذهب حابس فى ظلام الليل خفية ، وكمن حيث أشير عليه .

ولما جاء الصباح ، وأقبل الغبار وقف حابس وفى يده بقية من الحصى ، فأمسك حجراً ورمى به وجه داحس فأسال دمه ، ولواه عن مقصده وكاد فارسه يقع على الأرض ؛ وكان شيبوب يجرى كالريح بإزائه ، فلما رأى ذلك عاجله بخنجره ، فألقى على الأرض أمعاءه ، وانفلت إلى الغدير عادياً ، فوصل إليه قبل الجوادين وأخبر قيساً بما كان وبما دبر حذيفة ، ثم وصلت الغبراء على أثره ، ثم جاء داحس يصدق نبأه ، بما رأى القوم من دم يسيل على وجهه .

عجب القوم من سرعة شيبوب وقوة أعصابه ، وسبقه الجوادين ؛ وفرح بنو فزارة لإحراز الغبراء قصب السبق ، دون داحس ، ولكن عنترة سل سيفه ، وهمّ ببنى فزارة يحصدهم حصداً بما فعل حذيفة ، فضج مشايخ العرب وحالوا بينه وبين ما يريد طالبين إليه أن يعتصم بالصبر ، حتى ينظروا فيما فعل حذيفة ، ويحكموا بما يريدون .

أحضر المشايخ حذيفة ، وعتبوا عليه تدبيره وفعله ، فأنكر أنه يعلم من أمر حابس شيئاً ، وأصر على مائة ناقة من قيس ، بما حازت الغبراء من سبق عظيم ، فما أبه المشايخ لهذا الإنكار ، ورأوا أن حابساً لا يفعل

ما فعل من نفسه ، ولكن بتدبير حذيفة ، وحكموا أن يعطى حذيفة مائة ناقة لشيبوب ، لما أبداه من العجب فى سبق داحس والغبراء ، وبذلك ينتهى أمر الشقاق بين عبس وفزارة .

نزل حذيفة على حكمهم وفى صدره نار تتلظى غيظاً وحقداً ، وخاصة أن عبده قد قتل ؛ وضاع دمه هدراً ، وانفض الخلاف ، ورجعت كل طائفة إلى ديارها .

جعل قيس يذبح النوق عشراً عشراً ، ويوزع على الفرسان لحومها ، ويقيم الولائم والأفراح وبنو فزارة تعلم ذلك ، وهى منزوية فى خيبتها وخزيها ، فثقلت وطأة هذه الحال على بنى فزارة ، وجاءوا إلى حذيفة مستصرخين ، وقالوا :

كيف نكون السابقين الفائزين ، وشيبوب يأكل أموالنا ، ويقيم الولائم والأفراح على حسابنا ؟ ! ! إنا لهذا الوضع لمنكرون ، فاستمسك بحقك لدى قيس ، رضى أم أبى .

فبعث حذيفة إلى قيس ابنه — وكان يسمى شدية ويكنى أبا قرافة — ليطلب منه أن يدفع لأبيه مائة ناقة سراً ، وإلا أخذها منه علانية وجهراً ، وكان بحضرة حذيفة وهو يلقن ابنه رسالته هذه إلى قيس شيخ من مشايخ العشيرة ، يدعى حميصة ، فقال :

ما هذا الذى تقول يا حذيفة ؟ ! كيف تطيع داعى الحقد فى قيس

ابن عمك ؟ وكيف ترضى لنفسك هذا الحرص على المال ، الذى لا يكون إلا فى نفوس ذوى الشح والإقلال ؟ ! ! لا تنس أن مسامحتك قيساً وقومه خير لك وأسلم ، فهؤلاء أناس لا ينامون على ضيم يراد بهم ؛ أذهب عن وعيك أن لطمة وجه داحس كان جزاؤها فى الحال قتل من لطم ، وإهدار دمه ؟ ! ! هذه نصيحتى لك ، وما أردت بها إلا الإصلاح ما استطعت .

فهز حذيفة رأسه وقال :

لقد عمى عليك وجه الحق فأشرت بما لا يسيغه قلب يفقه ، فلو أن بنى عبس كالرمال عدًّا ، ما همنى من أمرهم قليل ولا كثير . والتفت إلى ابنه قائلا :

امض لما أمرتك به ولا تثريب عليك .

ذهب أبو قرافة بن حذيفة إلى قيس ولكنه لم يجد قيساً فى بيته ، وسألته زوجه ابنة الربيع عما يريده من زوجها ، فقال :

مائة ناقة ، يستحقها أبى لإحراز الغبراء قصب السبق .

فقالت :

لا تلحوا على البغى فيرديكم ، واحمد الله إذ لم تجده الآن ، ولو وجدته وأفضيت إليه بما تقول ما كتب الله لك السلامة .

عاد أبو قرافة إلى أبيه وأخبره بما قالت زوج قيس ، فغضب وقال :

رجعت إلىّ بالخزى والصغار ، فعد من فورك إلى قيس وقل له :

أبى يخبرك أن تعطيه مائة ناقة رهان سبقه ، وإلا فانتظر الحرب غداً حتى يأخذها منك قسراً .

فقال أبو قرافة لأبيه :

ليكن ذلك غداً ، فإنى أخشى أن يدركنى الليل وأنا عائد ، فيقع ما لم يخطر لنا على بال ، ولا يجدى فيه الندم .

فقال حذيفة : لا بأس فى ذلك .

ولما رجع قيس إلى بيته ليلاً ، أمهلته زوجه حتى استراح وهدأ ، ثم أخبرته بما قال ابن حذيفة .

وعند الصباح جاءه عنترة ، وبعد مدة من جلوسه أخبره أن حذيفة ينذرهم بالحرب ، إن لم يعطوه مائة ناقة ، فغضب عنترة وقال :

ولا تزال الأيام تريك نفاق بنى فزارة وخيانتهم ، وما كان لنا أن نصبر على بغيهم هذا وهم لا يفيقون ولا يزدجرون .

وبينما هما يتحدثان إذ دخل ابن حذيفة عليهم ، فقال دون أن يسلم :

يا قيس ! يقول أبى أعطه حقه وأنت عزيز كريم ، وإلا أخذه قهراً على مهانة فيك وضيم .

فعصفت برأس قيس عاصفة من العزة ومد يده إلى رمحه ، فشق به قلبه قائلاً :

لعنت ولعن من بعثك ، أمثلى يخاطبه مثلك بهذا القول ؟ ! كأنك ربيت فى بيت كله لؤم وهجنة .

فأسرع عنترة وربطه على جواده ، ولوى وجهه إلى ناحية دياره، حتى يدخل به على أبيه فى موتته ، كما دخل على قيس فى لؤمه ووقاحته .

ولما دخل الجواد بين خيام بنى فزارة ، حاملا جثة أبى قرافة ، انهالوا عليه فزعين، وساقوه إلى حذيفة غاضبين، ولكن عنترة رمى جثة أبى قرافة أمام دار أبيه ، وعاد مسرعاً إلى ديار بنى عبس ، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئاً .

فحزن أبوه حزناً شديداً ، ونادى لساعته :

الثأرَ ! الثأرَ ! يا بنى فزارة .

وعاونه فى دعوة الناس إلى القتال سنان بن حارثة ، واجتمع له من ذلك رجال الحى وشبانه ، فلم يترك فيه إلا النساء والأطفال ، ومن قعد به ضعفه وقيده عجزه ، وسار حذيفة بهم إلى قيس بن زهير .

أما الربيع بن زياد ومن معه من عشيرته فقد اختار الحياد ، لأنه شعر بالضعة من يوم أن أقام سنان بن حارثة فى ديار حذيفة ، إذ كان

مقرباً عنده ، يشاوره ويجالسه ، ويستمع لنصحه ؛ وأغفل شأن الربيع بعد أن كان كل أولئك له ، ولهذا أصبح يود أن يعيش فى وطنه بين بنى عبس عزيزاً ، ويترك حياة الغربة الذليلة ؛ وأما قيس بن زهير فإنه أخذ يستعد لغزو بنى فزارة قبل أن يغزوه ، فجمع الجموع وسار بهم حتى التقى بجيش بنى فزارة .

وكان الحارث بن ظالم من المتخلفين ، لأنه أبى أن يقاتل بنى فزارة أبناء عمه، وصهره سنان بن حارثة ؛ ولعله خشى أن يقع فى يد من يحمله إلى النعمان ، فاختار لنفسه التخلف حتى لا يقع فيما يخشاه .

برز حذيفة منادياً :

هلم يا قيس لمبارزتى لتعلم أينا أحق بالملك من صاحبه ؟

فحاول عنترة أن يكل إليه مبارزته ، ولكن قيساً أبى إباء نخوة وعزة وثقة بأنه غالبه ، فتحفز رجال كل من حذيفة وقيس ، إلى خوض غمار الحرب على أثر اشتباكهما .

قيض الله للطائفتين شيوخاً منهما ، ظهروا فى الساحة فجأة وقالوا :

أيها العرب : صونوا أنفسكم وأهليكم من حرب لا تبقى ولا تذر ، وحكموا عقولكم فيما شجر بينكم ، واعلموا أن البغى مرتعه وخيم ، ولا يحيق إلا بصاحبه ، وقد رأينا أن نفض الخلاف بأن يدفع قيس لحذيفة دية ابنه، وبعد هذا تطمئن السيوف فى أغمادها ، وتأمن الأنفس فى جسومها،

والجسوم فى مضاجعها .

فرضى قيس بذلك الحكم ، لأنه صادف رغبة فى السلم عنده ، ودفعها مائة ناقة وعشرة عبيد ، وعشر جوار ، وعشرة جياد ؛ وانفرط عقد هذه الجموع ، وانصرفت كل طائفة إلى ديارها .

١٠

وجعل عنترة والحارث بن ظالم ومالك بن زهير ، يخرجون للصيد ، وذات يوم كانوا فى وادى الضباب ، وبه جماعة من بنى غراب ، فلمح مالك فتاة جالسة أمام أبيها تغطيها غلالة من حرير تنم عن جمال ووداعة ودلال ، فأحس من نفسه ميلا إليها ، فسلم على أبيها وسأله عن فتاته ، فقال :

ابنتى ، أبقاها لى الزمان ، لتكون عوناً لى على ضعفى وفقرى وشيخوختى .

فقال مالك :

ألم يخطبها منك أحد ؟

فقال الشيخ :

ومن فى ذلك الزمن ينظر إلى الفقير ؟

فقال مالك :

ولكن أنوثتها ملء العين والقلب ، ووجهها ينم عما طبعت عليه من خلق كريم .

فقال الشيخ :

ولكن الناس ينشدون فى الفتاة الغنى ولا تتجه أنظارهم إلى الفقيرة .

فقال مالك :

ولكن بناء الأسرة لا يقوم إلا على عمد من الخلق والثقة والمتعة .

فقال الشيخ :

ولكن الناس انصرفوا عن أسسها القديمة ، وتشبثوا بأغراض باطلة ؛ ولهذا قل أن تجد فى الناس اتساقاً فى المعيشة وائتلافاً فى العواطف ، أو انسجاماً فى الطباع ؛ وكثيراً ما تجدها تتوثب توثب الموج ، وتغلى غليان القدر ، لا تجمعها وحدة الغرض ، ولا يؤلف بين أفرادها اطمئنان كل إلى صاحبه .

فقال مالك :

أنا مالك بن زهير ، وقد رغبت فى زواجها ، فهل أجد عندك من الرضا ما يحقق رغبتى ؟

فقال الشيخ : حتى أستشيرها .

ثم التفت إليها فى صمت يكاد يبين ، فقالت الفتاة :

لا تخرج الفتاة عن طاعة أبيها إلا إذا أريد لها الشر والأذى .

فأدرك أبوها أنها راضية ؛ فقال لمالك :

ولكن المسافة فى الغنى بينك وبينها بعيد المدى ، وأخشى أن يعكر هذا لديكما صفو المعيشة .

فقال مالك :

إنما الإنفاق على الزوج ، وهو يبسطه ويقدره حسب غناه وفقره ، ولا يطمع فى مال المرأة إلا النذل اللئيم ، وقد عزمت على أن تكون معيشتها عندى كبنت الأمير ، وسيكون لك من هذا الغنى حظ عظيم .

ثم جاء عنترة والحارث إلى مالك وسألاه :

ما أبطأ بك ؟ !

فقال مالك :

كنت ألومك على ولعك بعبلة ، ولكنى الآن عذرتك ، فلا لوم عليك ؛ وقص عليه قصة الفتاة .

فقال عنترة للشيخ :

لقد كتبت لك ولفتاتك السعادة بهذا الزواج المبارك .

فقال الشيخ :

لله الحمد على ما أعطى ؛ وأبرم هو ومالك عقد الزواج ، ثم عاد

مالك هو وصاحباه إلى الديار ، على أن يكون زفافها إليه بعد أسبوع .

ولما رجع إلى أخيه قيس وأخبره بهذا الزواج ، قال :

لو أعلمتنى قبل ذلك لزوجتك من أميرة أو فتاة من فتيات علية القوم وسراتهم وأثريائهم .

فقال مالك :

وماذا جنت الفتاة التى أريد لها الفقر حتى تهمل وتغفل ؟ ! وقد تفوق السرية الثرية خُلقاً وَخلقاً ؟ وماذا جنيت أنا حتى أقيد نفسى بعرف فاسد ينقص حريتى ويجنى على البريئات الفقيرات من بنات جنسى ؟ !

وقال عنترة :

حاش لمولاى قيس أن يلوم إنساناً لبى عواطف نفسه ، وخلجات قلبه ، ما دام فى منأى عن العدوان والنقيصة ، وهو أجدر الناس بالتشجيع إذا كان فى عمله إبطال لعرف فاسد ، وتقاليد جائرة .

فقال قيس :

وما دام الأمر كذلك ، فليكن زفافكما فى ليلة واحدة .

فقال عنترة :

إن زفافى مرهون باختيار عمى ، ولا ندرى متى يرضى به وينفذه ، وربما طال أمده وامتد على نحو مانعلم من أحواله ، وأرى أن نعجل

بزفاف مالك وندع زفافي إلى حينه ، وأرجو أن يكون قريباً حتى أتمكن من تربية ما عسى أن أرزق به من أولاد قبل أن يحين حيني ، ويجيء أجلي .

أرسل مالك إلى حَماه عشرة هوادج من الديباج المطرز المذهب، وكثيراً من الخيام والأغنام والأنعام والعبيد والجوارى ، ثم سار ومعه إخوته وعشرة فرسان إلى وادى الضباب ، وهناك نزل فى خيمته التى أعدت له ولزوجه ودخل بها بين مظاهر الفرح والولائم الكريمة، وزياط ومرح من غناء ورقص ثلاث ليال متواليات ، وفى آخر ليلة أيقظ الحى رجفة موت دبت فتبدل حاله من نعيم إلى شقاء ، ومن غناء إلى بكاء .

١١

أخذ حذيفة دية ابنه ، وانقلب بها إلى زوجه ، فاستقبلته غاضبة باكية ، ثم قالت :

بعت دم ابنى بمال سارح ، ورجعت لابساً ثوب الفضائح ، لا كنت لى بعلاً ، ولا كنت لك أهلاً حتى تسكت هامة ابنى ، وتكف عن طلب السقى ، بالأخذ بثأره ، وسفك دم فى دمه .

فقال حذيفة :

لا تحسبى أن مسألة ابنى انتهت بأخذ دية ، ولكن عيونى منبثة فى بنى عبس، ترقب قيساً وإخوته ، وكل عزيز فى عشيرته ، لأتمكن من تنفيذ ما دبرته ، من قتل أحد من هؤلاء فيه ، وما أخذت الدية إلا لأجعل بنى عبس يستنيمون لى ، ويهملون أخذ الحذر منى ، وبذلك أكون قد ربحت الدية ، ويسرت لنفسى الأخذ بثأره ، وبعد ذلك يكون ما يكون، وذلك ما دبرته أنا وسنان بن حارثه ، ولم نظهر عليه أحداً ، فاجعليه فى موطن السر من صدرك ، واطمئنى على ثأر ابنك .

بلغ حذيفة عيونه أن مالك بن زهير تزوج من بنى غراب ، وأنه الآن عندهم ، فجمع إخوته : عوفاً ، ويزيد ، وحنظلة ؛ وأسر إليهم بما فى نفسه ، وأخفى الأمر عن أخيه حمل ، حتى لا يعوقه عن تنفيذه ، ويحول بينه وبين إتمامه .

ولما وافق إخوته على غزوه بنى غراب ، لقتل مالك بن زهير فى خيمة عرسه ، سار بهم فى سبعين فارساً من أشداء رجاله ، ولما بعدوا فى مسيرهم أوقف صحبه ، وأخبرهم بما هم ذاهبون إليه معه ، فوجد فى نفوسهم كل قبول ورضا .

وبغت حذيفة بنى عبس فى الصباح، وكانوا نياماً ، لأنهم قضوا الليل إلا أقله ، فى فرح بمالك بن زهير وزوجه ، فاستيقظوا على وقع أرجل الخيل، فخفوا إلى أسلحتهم واشتبكوا هم وأعداؤهم؛ وكان عنترة

أول من سارع إلى خوض المعركة ، فقتل كثيرين منهم ، وكادوا يلوذون بالفرار قبل أن يتمكن حذيفة أو أحد أنصاره من مالك بن زهير ، ولكن لله فى خلقه شئون ، فقد كبا بمالك بن زهير جواده ، فألقاه على الأرض بغتة ، فأدركه حذيفة بالغبراء فرسه ، وضربه بالسيف ضربة كانت القاضية ، ثم خشى أن يعرف عنترة مصرع مالك فلا يفلت من يده ، ففر هارباً وفر معه من أتباعه من كان حوله ، كل ذلك وعنترة يقاتل الأعداء ويطاردهم حتى انجلت عن الحى غمتهم ، وبينما هو عائد إلى خيمة مالك إذا بالصياح يطرق أذنه ، فقصد ناحيته ، فألفى مالك بن زهير ميتاً ، والناس يبكون ويصيحون من حوله ، وجواده الذى كانت كبوته سبب وفاته واجم حزين بجواره .

أصاب عنترة لفقد مالك غم شديد ، ودار بخلده أمران ؛ أيتبع حذيفة وقومه إلى ديارهم فيبيدهم أم يرجئ الانتقام منهم إلى وقت آخر ، ويقوم الآن بنقل مالك إلى أخيه وأهله ؟

إنهما أمران لا مفر له من قضائهما ، فاختار أن يطمئن أولا على مواراة جثة مالك فى مثواها الأخير ، ولفه فى ثياب حريرية ، وحمله على جواده ، ونزح به إلى الديار .

وسبق إخوة قيس عنترة ، فأخبروه بموت مالك أخيه ، وذاع هذا النبأ فى الأحياء ، فخرجوا لاستقباله فى بكاء صارخ ، وعويل جازع ،

وهم عظيم ، وأرادوا دفنه ، فقالت تماضر أمه :

ليكن ذلك فى الصباح ، حتى أذهب أنا نفسى ، بعد مواراته التراب ، إلى بنى بدر فأثأر لابنى .

فقال قيس :

اطمئنى يا أماه قلباً ، فلن أسكت عن بنى بدر ، حتى أجعلهم عبرة لمن يعتبر .

١٢

رجع حذيفة ومعه بضعة فرسان فروا معه ، فاستقبله حمل أخوه والربيع بن زياد ، وكانا لا يعلمان من أمر خروجه لاغتيال مالك شيئاً ، أما سنان بن حارثة الذى دبر له هذا الأمر ، ورسم له خطته ، فسأله :

ماذا فعلت بصيدك الذى خرجت من أجله ؟

فقال حذيفة :

أصبناه ، ولما سقط ذبحناه .

فلم يطق الربيع صبراً على ما فهمه ، من أن هناك أموراً جارية ،

لا يدريها ولا يعلم شيئاً عنها ، فقال :

يا حذيفة ! ماذا رأيت منى حتى أصبحت فى نظرك غير موضع لسر ؟ !

فقال حذيفة : لا تزال عندنا موضع ثقتنا ، وأمين أسرارنا ، ولا تحسبن أنا نخفى عنك شيئاً ، لقد قتلت مالك بن زهير فى ابنى أبى قرافة ، وسأغتال إخوته واحداً فى إثر آخر ، حتى أطفىء ما فى صدرى من نار الحزن على ولدى .

كاد الربيع يخر صعقاً من هول ما سمع ، وقال :

بئسما فعلت يا حذيفة ، فلقد قضيت على أهلك وعشيرتك بموت محتوم ، ولا منجاة لكم من قيس وعنترة ، وإن كنتم كالنجوم عدداً .

فقال حذيفة :

كأنك نقمت منا هذا العمل الذى نراه لنا مفخرة وذكرا .

فقال الربيع :

لا ريب فى ذلك ، ولكن هذا موقف لا أرتضيه لكم على أى حال ، فهو سفه وخيانة ، وعدوان وجهالة .

فغضب حذيفة وقال :

عجباً لمثلك يكون فى ضيافتنا ، ويغلظ القول فينا ، ويكره أن نسود ! ! ولقد اعتبرت عملنا هذا شؤماً علينا ، وما الشؤم إلا فى طلعتك ،

وطلعة إخوتك ، ولولا ما طعمت من زادنا لجازيناك بما قلت ، فارحل إلى قيس لتقاسمه أحزانه ، وسأمهلك يومين ترحل فيهما ، واحذر أن تبقى فى ديارنا بعدهما لحظة ، وإلا حل عليك غضبى ، وكنت أنت وإخوتك عرضة لهلاك محقق .

ارتحل الربيع كاسف البال كئيباً ، وذاق مرارة الغربة ، ومذلة الاعتزاز بغير أهله ، فلم يفكر فى الالتجاء إلى غير أهله وعشيرته ؛ وندم حذيفة على أن طرده ولم يقتله ، فقد خشى أن يذهب لاجئاً إلى بنى عبس ، فيزيد قوتهم ، ويشد أزرهم ، فقال رجل من بنى فزارة :

لقد اشترى الربيع أمس زقًّا من خمر ، فإن كان قد أتلفه وأراقه على الأرض ، كان ما أبداه من الحزن على مالك حقًّا ، وكان قتله حينئذ خيراً من تركه وطرده ، وإن كان أخذه معه فما أبداه من الحزن رياء ونفاق ، وكان طرده إذ ذاك خيراً من قتله .

فندم حذيفة حيث لا ينفع الندم ، إذ رأى الزق ممزقاً ، والخمر مراقة .

أما الربيع فقد جد فى السير إلى بنى عبس ، فوجد قيساً وأهله على قبر مالك ، فعزاهم ، وكان وجهه تعلوه غبرة الحزن الأليم ، المشوب بندم عظيم ، وذبح مائة ناقة ، ورثاه خير رثاء ، واعتذر إلى قيس وعنترة عما فعله ، من تلك الغضبة التى كان ألمها على نفسه أعظم من ألمها على أحد غيره ، ثم عادوا جميعاً إلى الديار ، وذهب كل منهم إلى داره .

لم يكن قيس قد اطمأن إلى عودة الربيع واعتذاره ، ولا يزال يخشى مكره وغدره ، فأمر أمة أن تختفى بين أعدال الدقيق فى بيته ، لتنقل إليه ما يكون بينه وبين زوجه ، فقالت له :

لقد أوى الربيع إلى فراشه ، ولما حاولت زوجه أن تخلو به أبى عليها ذلك فى غضبة حادة .

فاستبشر قيس إذ علم من ذلك أنه صادق فى اعتذاره ، مخلص فى أوبته ، حزين على فقد أخيه ، عازم على الثأر له .

وبعد ثلاثة أيام من قدوم الربيع ، جمع قيس ذوى الرأى والمشورة عنده ، لينظروا فى غزو بنى فزارة والانتقام منهم ، وتفقد عنترة فى الجالسين فلم يجده ، فسأل عنه أباه شداداً ، فقال :

لا أعرف له خبراً ولا مكاناً .

فخشى أن يكون غادر الديار لقدوم بنى زياد ، حتى لا يبغتوه بكيد جديد ، فى ذلك الوقت الذى شغله الحزن على مالك بن زهير عن كل شىء ، وبينما هم جالسون فى وقت الضحا ، إذا بغبار مقبل عليهم ، فأثار مخاوفهم ، وذهبوا للقائه ، وفى مقدمتهم قيس وإخوته ، والربيع بن زياد وعشيرته ، فأزال المخاوف من نفوسهم أن انجلى هذا الغبار عن عنترة وأخويه شيبوب وجرير ، وما أتوا به من نوق وجمال وأموال .

تقدم قيس إلى عنترة وسأله عن هذه الحال ، فقال :

جعلت من بنى فزارة مناحات تضج نواحاً وبكاء ، وقتلت عوف ابن بدر ، أخا حذيفة وعشرة من سراتهم وأعيانهم ، وجئت بأموال أخيك مالك التى كان قد أخذها لعرسه ، فخذوا حذركم ، واستعدوا للقائهم ، فلا إخالهم إلا مغيرين عليكم اليوم أو غداً .

فأشفق قيس عليه ، وقال :

كيف خرجت وحدك ياعنترة ، وأنت تعلم أنا أحرص عليك من نفوسنا؟!

فقال عنترة : منذ عرفت خبر مالك ، ملأ الهم نفسى ، وزهدت فى النوم جفونى ، وانتظرت سرعة أمرك بالمسير إلى بنى فزارة ، لنروى ظمأ سيوفنا من دمائهم ، حتى طال بى الانتظار ، وأرهقنى هذا الصبر الطويل ، وفى ليلة غفوت إغفاءة لا علم لى بمداها ، فرأيت فى المنام مالكا يقول لى : هدأت واستقررت ، ونمت عن ثأر مالك ، ومن كان وفيًّا بخليله من قبلك ، حتى تفى أنت بمن واراه التراب ، وكان تحت أطباق الثرى ؟! ! ثم ودعنى بنظرات طويلة واختفى ، فانتبهت من نومى وليس يشغلنى فى الدنيا إلا مالك وثأره ، فصحبت أخوىّ شيبوباً وجريراً ، وشققت بهما حجب الظلام ، حتى قربت من ديار بنى فزارة ، فسمعت صوت هذه الجمال ، فدنوت منها لأتبينها ، وأعرف من يسوقها ، فألفيت مائة فارس يقومون عليها ، فأنذرتهم قتالاً وحرباً ، إن لم يستسلموا لى ويذعنوا ، وإذا برجل يقول لى :

أنا فارس الدهر عوف بن بدر .

وكان مقبلا علىّ فى عشرة من فرسانه ، ففرحت بهذا التوفيق ، وعجلت له وللفرسان الذين معه الفناء ؛ ثم أعملت سيفى فى بقية المائة ، فلم يطيقوا لقاء ولا بقاء ، ففروا وتركوا أموالهم غنيمة لى ، فسقت هذه الأموال وجئت بها إليك ، ولا إخال الهاربين إلا أنهم ذهبوا إلى حذيفة وأخبروه ، ولعله يجمع جموعه الآن ، ليغير علينا اليوم أو غداً .

وكانت قصة هؤلاء الفرسان المائة سبباً فى أن حذيفة أوجس خيفة فى نفسه ، من طرده الربيع وإخوته ؛ وعض بنان الندم ، أن أخلى سبيلهم ولم يقتلهم ، حتى يأمن كيدهم ، ومن شدة غيظه ، وحرقة ندمه ، أنفذ أخاه عوفاً فى مائة فارس من أشداء رجاله إلى بنى غراب لينهبوا أموالهم ، وليقتلوهم ، ويأسروا نساءهم ، ويأسروا زوجة مالك ، ليشق بطنها ، ويخرج ما عسى أن يكون فيه من ولد ، منتهزاً بذلك فرصة انشغال بنى عبس بالحزن على قتل مالك بن زهير .

وأغار عوف على بنى غراب ، فشردهم ونهب أموالهم ، أما النساء فلم ينل منهن نيلاً ، لأنهن اعتصمن بالجبال ، وخلين الديار وما فيها ، ثم رجع عوف بفرسانه ، وبينما هو سائر فى السحر لقيه عنترة فقتله ، وقتل بعض فرسانه ، وشرد بقيتهم ، ونهب أموالهم ، وعاد إلى بنى عبس فقص عليهم ما فعله فى غيبته من قتل عوف وبعض فرسانه ونهب أموالهم ، تلبية لنداء مالك له فى منامه .

١٣

أخبر الهاربون حذيفة بما فعله عنترة بهم وبأخيه ، فضاق صدره ، وثارت ثائرته ، وهم أن يقوم بغزو بنى عبس لساعته ، ولكن سنان بن حارثة أشار عليه أن يتمهل ولا يعجل ، حتى يجمع الجموع ويجند الجنود ويكون فى خلق كثير ، يكفل له النصر المبين ، وقال سنان : ولننتهز فرصة قدوم النعمان بجيشه ، يطلب الحارث بن ظالم من قيس بن زهير الذى كفله ، فنغير عليهم معه ، وننال منهم حينئذ كل نيل ؛ فاطمأن حذيفة إلى قول سنان ، وجعلوا يعملون له .

* * *

أنهك عبلة الحزن على مالك ، وضاقت الدنيا فى وجهها فرغبت أن تروح عن نفسها بمغادرتها بيئة الأحزان التى أرهقتها إلى غدير ذات الأرصاد ، فأرسلت جاريتها خميسة إلى عنترة ، لتكون فى كفالته وحمايته ، حتى تذهب إلى الغدير وتعود ، فسره النبأ ولبى الرغبة ، فخرجت فى الموعد المضروب ، وكان غدوة من نهار ، ومعها عشر بنات أبكار ، ونزلت بهن عند الغدير ، وعنترة كامن لهن فى ناحية ، ليكون لهن عند الحاجة ، وليأخذن حظهن من الحرية الكاملة .

وكان عمارة الوهاب قد أضناه الغرام ، فبث من حولها العيون ، ليقف على حركاتها وسكناتها ويبغتها بالاجتماع بها ، حيث تكون بعيدة عن أهلها ، وفى غيبة من عنترة ؛ فلما علم من عيونه أنها خارجة إلى الغدير غدوة يوم كذا تنكر فى زى فتاة عربية ، وذهب إليها ، فوجد عبلة وصاحباتها غارقات فى لهوهن ومرحهن ، فأقبل عليهن وهو فى نشوة الفرح بلقياها ، والتمتع بجمالها وعذب حديثها ، وهن يحسبنه فتاة عربية تبغى الترويح عن نفسها بمقاسمتهن الغناء والرقص والحديث والطعام والشراب ، فلما سلم عليها ، قبض على يدها قبضة لمست فيها ريبة ، فقالت :

من أنت أيتها الفتاة ؟ وما جاء بك وحدك إلى هذا الغدير ؟ !

فقال عمارة :

أنا عمارة الوهاب ، الذى أسقمه هواك ، ولا ينام عن ذكراك ، عرفت من عيونى قدومك إلى هذا الغدير ، فتنكرت فى هذه الثياب ، لأستمتع بهذا الوجه النضير .

فقالت عبلة :

أما خجلت من نفسك ؛ إذ أصبحت بهذه الثياب بنتاً خفرة ، أو امرأة مجترئة وقحة ؟ ! ! وأما خشيت أن يراك عنترة ، فيلقيك فى التهلكة ؟ !

فقال عمارة :

دعى هذه الفلسفة الباطلة ، والوعيد العاجز .

وكان عنترة فى مكمنه ، على مشهد ومسمع من ذلك كله ، فانقض عليه كالصاعقة ، ثم حمله بيديه وضرب به الأرض ضربة خر بعدها مغشياً عليه ، وتغوط فى ملابسه ، وعبقت نتانة رائحته ، فلما أفاق وجد نفسه ملوثاً بعذرته ، بين ضحكات ساخرة ، ونظرات مستهزئة ، وأنوف بالأصابع مقفلة ، فانسل إلى الغدير يتعثر فى خزيه ؛ وهناك غسل ثيابه ، وسار مسرعاً إلى داره ؛ وأيقن عمارة ، بافتضاح أمره ، وأنه عند الصباح سيكون حديث الأحياء ، فذهب إلى أخيه الربيع ، وقص عليه قصته وطلب إليه أن ينتقم من عنترة له ؛ فاستشاط الربيع غيظاً ، وقال :

ليت بطن أمك لم تنشق عن مثلك ، أو ليتها وقعت عليك عقب ولادتها ، فلقد كانت طلعتك شؤماً عليك ، وعلى أهلك ! ! وبأى وجه أنتقم لشخص ساقط فى خلقه ، سالح فى ثوبه ؟ ! اقبع فى دارك ، واكتم أمرك ، عسى أن يطويه النسيان ، ويخفيه مرور الزمان ؛ ولا تجعل لنا سبيلا إلى عبلة ، وكفانا ما أصابنا منها بسببك حتى انتهى بك إلى أقذر مصير .

١٤

بعث سنان بن حارثة إلى النعمان رسلا تخبره أن قيساً وعنترة أبيا تسليم الحارث بن ظالم له ، وقالا :

لا يطمع فى أخذه منا إلا من جاء أجله ، وانتهت من الدنيا أيامه ، وإن كان النعمان نفسه ، فلا يغرنه كثرة جنده ، وبسطة ماله ، وقوة سلطانه ، فلن يصل إلينا ، فنحن الغالبون .

فضاق النعمان ببنى عبس ذرعاً ، وأحضر أخاه الأسود ، ونفض إليه ما فى نفسه ، فقال أخوه :

ألم أقل لك إن سلطانك لا يزال فى خطر ما دام بنو عبس فى قوتهم وكبريائهم ، وما دام عبدهم الأسود عنترة فيهم ، فإن أردت أن تمكن لسلطانك فى العرب ، وتكون مسموع الكلمة بين القبائل ، قريبها وبعيدها ، فابعثنى إليهم فى جيش يملأ بقاعهم ، لأجتثهم من فوق الأرض ، ولا أدع لوجودهم أثراً ، ولا يغرنك ما بينك وبينهم من نسب ، فهم لا يحفلون بك ، وربما طمعوا فى ملكك وليس أدل على ذلك من أنهم أجاروا قاتل ابنك ، وقاتل خالد بن جعفر فى محلتك ، فإذا صبرت

عليهم بعد ذلك ازدادوا طمعاً فيك ، وزراية بك ؛ وهذا آخر ما أشير به عليك .

فصدق ما قاله أخوه الأسود وسيره على عشرين ألفاً من جنده ، وأمر قبائل العرب الخاضعة له أن تكون طوع أخيه ، وأن تمده بما يحتاج إليه من مال ورجال .

علمت المتجردة أخت قيس وزوج النعمان كل هذا ، فبعثت فى الحال عبداً من عبيدها إلى أخيها ، وهناك أخبره بذلك ، وأن الأسود فى طريقه إليه بخيله وجنده ، وكان عنترة حاضراً ، فشكر قيس لأخته حرصها عليه ، وشيع عبدها خفية ، حتى يبقى أمره وأمر أخته فى طيات الكتمان .

أحضر قيس الحارث بن ظالم ، والربيع بن زياد ، وأعيان قومه وكبراءهم ، وشاورهم فى أمره ، وماذا هو فاعل فيه ؟ فقالوا :

نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظر ماذا تأمر .

وقال الحارث :

وإنى أستطيع أن أحضر إليكم بنى مرة ، ليكونوا فيكم قوة .

فقال عنترة :

لسنا فى حاجة إلى مدد يأتينا ، فنحن من الأيد والقوة على حال نستطيع بها أن نهزم من فى الأرض جميعاً ، ولكنى أخشى أن نخرج للقاء

جيش الأسود برجالنا ، فيغزو حذيفة برجاله ديارنا ، ويفعل فى أموالنا ونسائنا ما يشاء ، وأرى أن نعجل الآن بالقضاء على حذيفة ، حتى نأمن على ديارنا من جانبه ، ونفرغ بعد ذلك للأسود وجنده .

فقال قيس : نعم الرأى .

أمر قيس أن تنفر الفرسان لقتال بنى فزارة ، فاجتمع له فى الحال أربعة آلاف فارس ، وفى صبيحة يوم بدءوا سيرهم إلى حذيفة ، وكان قد بلغه ذلك ، فنفر هو أيضاً فى عشرة آلاف ، وسار بهم للقاء بنى عبس ، فالتقى الجمعان عند تل المريقب ؛ وكان أقرب إلى ديار حذيفة منه إلى ديار قيس ، ودارت رحى الحرب بينهما حتى غربت شمس النهار ، على ما أصاب حذيفة وقومه من هزيمة وبوار ، ولكنه لا يزال مصرًّا على الثبات ، فسكن كل منهما إلى مضاربه ، لاستئناف القتال فى غده .

ولما جاء الصباح وتأهب الفريقان للقتال ، تقدم شيخ من بنى عبس ، يدعى أرطأة بن مخزوم ، وأقسم على عنترة أن يتركه يفتح باب القتال ، حتى يشفى صدره بالفتك ببنى فزارة ، فأجابه إلى رغبته .

جال أرطاة بن مخزوم بين الصفين ونادى :

دونكم البراز يا بنى فزارة .

فوثب اليه فى ساحته مالك بن بدر أخو حذيفة قائلا :

لبيك أيها المغتر ، وستلقى منى كل بلاء وشر .

ثم وثب عليه وثبة انخلع لها قلبه ، فانفلت كالسهم من بين يديه ، وفر هارباً إلى بنى عبس ، فاغتاظ عنترة وقال :

أرغم الله أنفك ، لقد خدشت هيبة القبيلة ، فما فينا عبسى يترك الميدان ولو قطعته السيوف إرباً ، ثم وثب إلى الساحة ، وجال فيها منادياً :

يا مالك بن بدر ؛ لقد هزأك الشيخ بفراره ، إذ لم تستطع قتله أو أسره ، وذلك نوع من الغلب يتفكه به الفارس إذا شاخ وبلغ من الكبر عتيًّا ، فابرز إلى عنترة ، ومعك إخوتك ومن شئت من قومك ، لتلقوا حتفكم ، أو تلبسوا ثوب الخزى بأسركم ، ولن تستطيع منى فراراً .

فما أجابه ولا برز إليه أحد ، وتداخل بنو فزارة بعضهم فى بعض ، تداخل القطيع من الغنم وقد أبصر ذئباً ، ثم قال :

ما بالكم يا بنى فزارة تزوون وتنكمشون ، إن كنتم قد جئتم لأخذ الثأر فأنا الذى قتلت أخاكم عوفاً ، وملأت قلوبكم غمًّا وهمًّا ورعباً وخوفاً ، ولا أنثنى عنكم حتى أجعل دياركم بلقعاً ، ينعق فيها الغراب ، وتكون مسرحاً للطير والذئاب ، فبرز إليه فزارى يدعى الأخطل بن سحاب ، وقال :

ما أقعدنا عن الخروج إليك إلا أنفتنا من مبارزة العبيد الأنجاس ، وما دام الأمر قد تحتم ، فخذ حذرك فإنى مبارزك ومرديك .

فابتسم عنترة وداوره مداورة أذهلته ، وطعنه برمحه طعنة أردته قتيلا .

فصاح بنو عبس : لاعدمناك من فارس لك هيبتك ، ولا عاش من يبغضك ويشنؤك .

فلم يستطع أخو الأخطل بن سحاب على قتل أخيه صبراً ، وبرز إلى عنترة يبغى قتله ، فلم يمهله عنترة ، حتى شق رأسه بسيفه ، فوقع على الأرض ولا حراك به ، فثارت ثائرة حذيفة وألهب الحماسة فى صدور جنده ، واشتبك الجمعان يوماً كاملا ، كان على بنى فزارة عبوساً قمطريراً، وكان على بنى عبس نضرة وسروراً .

وفى أثناء الليل اجتمع حذيفة بسنان بن حارثة والأعيان من حاشيته، ليقرروا مصيرهم بعد هذه الهزائم المتوالية المطردة ، فقال سنان :

أرى أن نرحل فى ظلام هذه الليلة إلى ديارنا ، ولا نأتى لحرب بنى عبس حتى نجمع لهم الجموع ، فنكون أمثالهم ، وأضعاف عددهم ، وأمامنا فرصة سانحة ، وهى الانضمام إلى جيش النعمان ، الذى هو لا محالة قادم من أجل الحارث بن ظالم ، والاشتراك معه فى سحق بنى عبس ، ونحن إن حاربنا بنى عبس غدا ورآهم جنودنا يحصدونهم حصداً ، انفضوا من حولك ، وخلوك فى الميدان وحدك ، وفروا هاربين من الموت لأن مذاقه مر ؛ ولا يقوم عليه إلا من كان عنده أمل فى النجاة منه والفوز على عدوه ، أما إذا فقد ذلك الأمل فلن تجد من يستسيغه ويقوم عليه ، وقد رأيت بعينى رأسك قوة بنى عبس ، وقوة حاميتهم عنترة ،

فلا غضاضة علينا أن نفر من بين أيديهم حتى نبلغ من القوة وعدد الجنود أضعافاً مضاعفة .

فقال حذيفة :

وكيف تطيب الحياة لى ، والناس يقولون : لقد هرب حذيفة من عبد أسود ، ولم يستطع صبراً على أن يثبت أمامه ويقاتله ؟

فقال سنان : سأجعله عن صلح بينك وبين قيس غداً .

وعزز هذا الرأى الحاضرون ، وجعلوا يسترضون حذيفة حتى قبله .

أمر سنان حذيفة أن يخرج إلى ساحة القتال وينادى أن يبرز إليه قيس وإخوته لمبارزته هو وإخوته ، فمن غلب منا كان السلطان له، وألقى إليه المغلوب مقاليد طاعته ، ونزل على حكمه .

قال سنان :

فإذا ما حضر قيس وإخوته إلى حذيفة تلبية لدعوته وندائه ، وتأهبتما للمبارزة خرجت أنا وبعض من مشايخ فزارة ، ونصحنا لكما ألا توقدا نار الحرب بينكما ، فذلك لا يليق بسادات العرب وقبائلها ، وينبغى أن يكونوا رحماء بعشائرهم وأهليهم لا قساة غلاظ الأكباد عليهم ، فإذا ما تم الصلح ، انصرفنا إلى ديارنا مكرمين ، وهناك نعد عدتنا للاشتراك مع النعمان فى قتال بنى عبس .

فنزل حذيفة على رأيه ، وجال فى الميدان على فرسه الغبراء ، وتبعه

إخوته فى أسلحتهم ، وصاح حذيفة :

يا بنى عبس ، أنتم أصحاب الأمروالنهى ، ونحن أولاد بدر بن عمرو ، وقد ابتسم لكم الزمان ، و برقت الآمال فى أعينكم ، وغفلتم عن طبيعة الدهر وسنته ، الذى يعطى ثم يأخذ ، ويقبل ثم يدبر ، ويضحك ثم يبكى ؛ وما كان لعاقل أن ينام فى حجر الزمان وهو آمن ، أو تخدعه مصالحة الأيام فيطغى ويظلم ؛ وما غرماؤنا فيكم إلا أبناء الملك زهير ، فأخرجوهم إلينا ليكون السيف حكماً بيننا وبينهم ، فمن غلب منا قضى على غريمه بما يشاء ، وإن لم يرضكم هذا أرسلنا أعنة خيلنا ، ولويناها إلى ديارنا ، واعتصمنا بالجبال ، وجمعنا لقتالكم كل بطل وفارس ، وإن وصلت جيوش النعمان شددنا بها أزرنا ، وخربنا دياركم ، وأذهبنا ريحكم .

سمع قيس بن زهير هذا ، فخشى العار إن هو أحجم عن النزال حين دعى إليه ، وأمر أهله أن يخرجوا إلى الميدان معه ، لتلك المعركة الفاصلة ، فاستعدوا للخروج معه ؛ وسمع عنترة هذا فقفز بجواده حتى كان بينهم ، وقال لقيس :

ما هذا الذى عزمتم عليه ؟ وذمة العرب لا أدعكم تبرزون إلى حذيفة وإخوته وأنا معكم ، وسأنوب عنكم فى هذه المعركة ، فإما أتيتكم بهم أسرى ، وإما فروا من وجهى جرحى .

فقال قيس :

أخشى أن يقال إن أبناء زهير قد اعتمدوا على عنترة فى كل نائبة ، وقد طلبوا إلى القتال فخافوا وقعدوا ، فدعنا نقاتل بنى بدر هذه المرة ، لنذهب ما ساور نفوسهم من غرور ، فرضى عنترة وعزم أن يرقب الميدان وما يجرى فيه ، حتى إذا رأى فى أبناء زهير ضعفاً حمل على بنى بدر وأفناهم بسيفه .

وما كاد الفريقان يهمان بالقتال حتى جاءهم شيوخ بنى فزارة ، عراة الرءوس ، حفاة الأقدام ، وفيهم شيخهم الكبير المنقطع لخدمة الأصنام ، وصاحوا فيهم :

واذل بنى فزارة وذبيان ! ! يا قوم ! لا تعقوا أنسابكم ولا تقطعوها ، ولا تركبوا ظهور البغى والفساد ، ولا تشمتوا بكم الأعداء والحساد ، ولا تخلفوا من بعدكم أسوأ الذكرى ، وأقبح الفعال ، فاغمدوا سيوفكم ، واعتبروا بغيركم ، وما نحن بتاركيكم يقتل بعضكم بعضا .

ثم أمسك كل منهم بعنان جواد فارس ورده عن الميدان ، وأبطل ما كانوا قد أصروا عليه من القتال ، فاستحيا الملك قيس وقال :

ما كان أن أبطل سعيكم ، وأضيع غرضكم ، وقد رضيت بما أردتم من الصلح والمسالمة ، ولكن لى شرطاً ؛ فقال سنان : وما هو ؟

فقال : أن يحلف حذيفة ألا يغدر بنا ولا يساعد عدوًّا علينا ،

ويعطينا رهائن من بنى فزارة ، تأكيداً لميثاق المصالحة بيننا وبينه ، وإن لم يرضه ذلك فلسنا براجعين عنهم حتى نفنيهم ، لنضعف جند النعمان بفنائهم .

وأدرك شيوخ بنى فزارة أنهم إن لم ينزلوا على حكم قيس فإن بنى فزارة هالكون ، فذهب سنان إلى حذيفة وقال :

من الخير لكم أن تستجيبوا لحكم قيس ، فإن القتال فى مواطن الخطر والغلبة خرق وحماقة ، فاقبل ما أفضى به قيس ، وارتقب فرصة سانحة تمكنك منهم ؛ وهذا النعمان مقبل بجيوشه ، وسيقطع دابرهم ، ويجعلك ملك فزارة وذبيان وعبس وغطفان ، وصاحب السلطان الشامل فيهم .

فرضى حذيفة ، وجمع سنان بينهما ، وحلف حذيفة ، وأعطاه الرهائن ، وانصرف كل إلى قومه ؛ وكان عنترة غير مستريح لهذا ، ولكنه آثر ألا يخالف ملكه وكان عدد الرهائن مائة وخمسين فارساً ، أنزلهم قيس فى خيام نصبت لهم فى حيه ، حتى يكون فى حل من قتلهم إذا ما رجع حذيفة إلى غدره وخيانته .